كتب قومية

الثورة العرابية في الميزان

بقلم

حسن حافظ



اهداءات ١٩٩٩
الأستاذ/ كامل إبراهيم
أستاذ وفنان الخط العربي

كتب قومية

الثورة العرابية في الميزان

بقلم
حسن حافظ

الأهداء

إلى أبطال ثبتوا في المعركة .. فكانوا أبطالها الحقيقيين . .

إلى أبطال حفظوا الشرف العسكرى ، فرفعوا من قدر الكفاح المصرى . .

إلى محمد عبيد : الذى فك حصار الزعماء المصريين من براثن الشراكسة والأتراك فى قصر النيل ، والذى صمد لمدافع الإنجليز حتى لقى ربه . .

وإلى راشد حسنى : « أبى شنب فضة » الذى ثبت للانجليز فى معركة القصاصين . . والذى زحزحهم عن مواقعهم حتى كاد ينتصر لولا خروجه من المعركة جريحا . .

وإلى حسن رضوان : الذى أصلى الانجليز ناراً حامية حتى رد له قائد الجيوش الانجليزية سيفه وهو محمول على نقالة احتراما له وتقديراً لشجاعته . .

وأخيراً . .

إلى الكثيرين من الأبطال المجهولين من أبناء مصر . . الذين جمعوا القروش والحبوب ليساندوا جيشهم ضد الغاصب المحتل .

إلى هؤلاء . . وهؤلاء جميعا . .

أهدى إليهم هذا الكتاب . .

مقدمة

تصحيح تاريخ مصر الحديث

يقول الفيلسوف ابن خلدون :

« إن المؤرخين والمفسرين كثيرا ما وقع لهم من المغالط فى الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا دون أن يعرضوها على أصولها أو يقيسوها بأشباهها أو يحكموا النظر والبصيرة فى الأخبار . . فضلوا عن الحق ، وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط » .

وهذا الذى كتبه ابن خلدون يصدق إلى حد كبير على كثير مما دونه المؤرخون والكتاب عن تاريخ الثورة العرابية .

والحق أننى لم أعثر حتى الآن على ذلك المؤرخ الذى كتب عن الثورة العرابية دون أن يكون متحاملا . . أو محابيا . .

وأمامى ثلاثة كتب لثلاثة من مؤرخينا :

كتاب تاريخ مصر السياسى — للأستاذ محمد رفعت

وكتاب أحمد عرابى — للأستاذ عبد الرحمن الرافعى

وكتاب عرابى الزعيم المفترى عليه — للأستاذ محمود الخفيف

وصف الأول الثورة العرابية بأنها فتنة عسكرية . . وفي مكان آخر بأنها « هوجة هوجاء ونقطة سوداء » . .

والثورة العرابية حركة وطنية ووثبة من وثبات التحرر . . . ومن عجب أن يصفها مؤرخ بهذا الوصف الذي يتجاهل الوقائع ويجافي أبسط قواعد المنطق الذي يرتب النتائج على المقدمات ، انظر إليه وقد سرد أسباب الفشل قبل عرض الوقائع أو التحدث عن الأسباب !

وكان الأستاذ محمد رفعت وزيراً للمعارف حتى عام ١٩٥٢ وظل كتابه هذا يدرس للجيل الناشيء حتى وقت قريب :

. . ثم يأتي الأستاذ عبد الرحمن الرافعي فيصف الثورة العرابية بالمهزلة مع أنها كانت مأساة !

ولا يذكر « الخيانة » في كتابه ذي المائتين والتسع عشرة صفحة بين الأسباب التي أدت إلى الإخفاق . .

ثم يحمل عرابيا ، وعرابيا وحده دون أحد سواه مسئولية انقسام البلاد إلى معسكرين : معسكر الخديو ومعسكر الثوار . .

وكان الأستاذ عبد الرحمن الرافعي سكرتيراً للحزب الوطني . . والحزب الوطني كان يناصب عرابيا وثورته العداء .

وأخيرا يأتي محمود الخفيف ليحاول إنصاف عرابي فيخونه التوفيق . . كان الخفيف محاميا أكثر منه كاتب تاريخ ، جنحت به العاطفة فبعد عن الحقيقة ، انتحل من المعاذير والأسباب لعرابي أكثر مما تحتمل المعاذير

والأسباب . . ونسى أن التاريخ يحكم بالنتائج .. وأنه قاس لا يغفر الأخطاء ولو صدرت من المخلصين .

فإلى متى نتصرف فى التاريخ .. ونلونه بما يروق لنا من ألوان ونطوعه للأهواء والنزوات ؟

ليس فى تاريخنا — الحافل أحيانا بالمتناقضات — إلا الموقف المشرف والقصد النبيل . . لقد اختلطت بالتاريخ على أرضنا عوامل الحق بعوامل الباطل وعوامل الحقد بعوامل الغدر ، بذرات الغبار . .

وكان لزاما علينا ونحن نروى تاريخنا أن نفصل بين العوامل ، لنعفى وقائع التاريخ من كل ماشابها ، ونحررها من كل ماعلق بها من أدران .

وما نكاد ننفض عنها ذرات الغبار لنراها عارية حتى تبدو جلية أمام العقل المتفطن والنفس الشفافة . . وعندئذ نستطيع أن نتبين العوامل أصيلها ودخيلها وأن نرى الأشخاص والدوافع والأسباب والنتائج كما ينبغى أن يراها المؤرخ الذى ينصف نفسه عندما ينصف التاريخ . .

قبل الثورة

الحملة الإنجليزية على مصر

تعتبر الحملة الإنجليزية على مصر حلقة من سلسلة الحروب والمنازعات التى دارت بين الشرق والغرب منذ أقدم العصور . . وقد تعللت بدفع الخطر ، وأحيانا بالبحث عن الثروة وصراع البقاء .. ولكنها فى حوادثها الأسيفة التى انتهت باحتلال مصر سنة ١٨٨٢ قد تمثلت فى دورين كبيرين أحدهما لاحق بالآخر ومكمل له ومتوقف عليه .

« هذان الدوران هما دور الحروب الصليبية .. ودور المسألة الشرقية » . كان الصراع فى الحروب الصليبية موجهاً إلى البلدان العربية باعتبارها فى ذلك الوقت أقوى الدول الإسلامية وقلب البلاد العربية . . ولكنها هدأت عندما طرقت جيوش العثمانيين أبواب بودابست وفيينا ثم تحولت حملاتهم إلى الشرق وغزوا مصر فى أوائل القرن السادس عشر .

وشغلت فى أثناء ذلك دول أوربا باكتشاف أمريكا وحروب فرنسا ودعوة الإصلاح الدينى ، ثم عادت فى أواخر القرن السابع عشر وانتهت إلى النزاع الناشب بين روسيا الناشئة والدولة العثمانية الشائخة ، فكان هذا التنبيه فاتحة مسألة جديدة عرفت باسم : المسألة الشرقية .

وكانت سياسة الدول حيال المسألة الشرقية درساً تطبيقياً لمذهب القائلين « بالسياسة الجغرافية » ، وخلاصته : أن مركز الأمة الجغرافى

يملى عليها سياستها على اختلاف الحكومات والمعتقدات . . . !

أملى هذه السياسة على انجلترا موقعها البحرى واستيلاؤها على الهند أن تحتل جبل طارق ورأس الرجاء الصالح وعدن ومالطة ومصر ، وتعللت فى احتلالها لكل واحدة منها بعلة ، بينها وبين العلل الأخرى بعد ما بينها جميعاً من مسافات ... ولكن « السياسة الجغرافية » هى العلة الوحيدة التى تطوى جميع تلك العلل ، والغاية التى تسبق جميع الغايات .

التنافس الاستعمارى .

بدأ القرن التاسع عشر وانجلترا وفرنسا تتسابقان فى ميدان الاستعمار حيث كانت انجلترا فى ذاك الوقت أقوى دول البحر ، على حين كانت فرنسا أقوى دول البر ، وكلتاهما تتجه إلى البحر الأبيض المتوسط . وانجلترا شديدة الحرص على سلامة الطرق بين مستعمراتها الشاسعة وبين الجزر البريطانية .

وعلقت بذهن فرنسا نصيحة نابليون : « إن مصر موصل تجارى هام بين الشرق والغرب ، وإنها إذا افتتحت فلن تقوم لانجلترا قائمة فى بلاد الهند ولا سيما بعد شق قناة بين النيل والسويس » .

واشتد التسابق عند ما دخلت الدولة العثمانية فى دور الانحلال حتى سماها الساسة الأوربيون « بالرجل المريض » .

ولعل المبارزة الدولية حول مصر فى العصر الحديث قد ظهرت للمرة الأولى بين روسيا وانجلترا ، عندما أعلن على بك الكبير استقلال هذه البلاد إلا أن خصمه « محمد أبو الذهب » استعان بالانجليز ، وكان حليفا

لم يسر لهم وصول السفن الإنجليزية إلى السويس . . واتفق هذا مع ثورة الخواطر فى العالم الإسلامى على روسيا المسيحية فى ذلك الوقت ، فغلب على بك الكبير على أمره وعادت مصر إلى ما كانت عليه نهباً للمماليك .

وأخذت انجلترا وفرنسا تترقبان ، وكل منهما تصيد أقوى المماليك بأسا إلى جانبها حتى آلت الولاية إلى محمد على .. ويبدو أن فرنسا كانت أعلم بحقائق الأحوال فى مصر من منافستها هذه المرة ، فأيدت فرنسا ترشيح محمد على لدى الباب العالى بمسعى مسيو « ماثيودلسبس » صديق محمد على ووالد فردينان دلسبس صاحب مشروع القناة

حملة فريزر :

غير أن الانجليز عارضوا فى ولاية محمد على ووجهوا إلى مصر حملة كبيرة مكونة من ٧,٠٠٠ جندى بقيادة فريزر عام ١٨٠٧ كان غرضها يختلف عن غرض الحملة التى أرسلت عام ١٨٠١ لطرد نابليون ورد مصر إلى الأتراك .. ولكنها فى هذه المرة كانت تقصد معاونة المماليك والقضاء على سلطة محمد على ونفوذ الفرنسيين . . حسبها الانجليز نزهة حربية ، غير أنهم ما كادوا يحتلون رشيد حتى أطبق عليهم محافظ المدينة على « بك » السلانكلى من كل جانب وأباد عدداً كبيرا من القوات الغازية ، واضطر الباقى إلى الجلاء مدحورين

وظلت انجلترا تتحين الفرص لتحقيق مطامعها فى مصر ، حتى أثارت الدول ضد محمد على خشية اشتعال حرب كبيرة إذا انهارت دولة آل عثمان وحتى أبرمت معاهدة سنة ١٨٤٠ التى كانت نكبة على مصر حيث تذرعت بها بريطانيا واتخذت منها « غلا » يقيد تصرف للصريين . !

وفى نهاية حكم محمد على بدأ التفكير الفعلى فى إنشاء طريق يربط الهند بالغرب عبر مصر ، فقام صراع بين فكرتين أو بعبارة أدق بين دولتين هما انجلترا وفرنسا .

كانت الأولى تبغى احتكار الخط الحديدى بين الإسكندرية والقاهرة فى حين كانت فرنسا تحبذ مشروع القناة الذى كان لا بد أن يصبح مسألة دولية ولذلك قال « مترنيخ » السياسى الداهية عندما أتى ذكر القناة : « إن شركة خاصة لن يسمح لها بتنفيذ المشروع من غير أن تستعين بالحكومات » .

فتلكأ المشروع وتعثر بسبب ماساور انجلترا من مخاوف نتيجة أن هذا الطريق — باعتباره طريقاً بحرياً عاما — سوف يفتح آفاقا جديدة لجميع الدول ، علاوة على أن انجلترا كانت تخشى أن يكون من وراء هذا الحفرنية من جانب فرنسا للاستيلاء على مصر . . إلا أن محاربة انجلترا لهذا المشروع لم تدم طويلا عندما نشبت فتنة الهند ، واستنكرت جميع الدول موقفها الأنانى حتى اضطرت فى النهاية إلى تأييده ، بل وأكثر من ذلك اعترفت — عندما انبرى غلادستون يدافع عن المشروع — أنها ستستفيد من القناة أكثر من أية دولة أخرى .

أما محمد على فقد أبدى رأيه بصراحة فى هذا المشروع إذ وصفه بقوله :

« أنا لاأريد أن أجعل وادى النيل ممراً دوليا .. كما أنى لا أرغب فى إيجاد بوسفور آخر » .

ومات محمد على سنة ١٨٤٩ من غير أن يتقيد بأحد المشروعين . . وتولى عباس الأول وكان لا يميل إلى الحضارة الأوربية الفرنسية . وسرعان ماالتف حوله القناصل الانجليز ، وسبقوا منافسيهم ووقعوا عقد إنشاء خط حديدى يصل الإسكندرية بالقاهرة . إلا أن حلم القناة قدر له أن يتحقق على يدى الوالى سعيد باشا ثم قدر للمشروع أن يظهر بعد ذلك على يدى إسماعيل .

وافتتحت القناة رسميا فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ فى موكب من ٦٧ سفينة يتقدمه اليخت الامبراطورى « النسر » وعليه الامبراطورة « يوجينى » .

وبهذا أصبحت قناة السويس جزءاً من جغرافية العالم الطبيعية والسياسية ، وأصبحت بيت القصيد فى التيارات السياسية فى الشرق الأوسط ، وظهر اقتراح خطير مؤداه أن تتقدم الحكومة البريطانية لشراء الشركة وبذلك تسيطر على القناة ، فاقترح دلسبس درءاً لهذا الخطر بيع القناة لدول أوربا البحرية مجتمعة حتى يضمن دولية القناة .

وأخيراً أنقذ الباب العالى الموقف حين أعلن : « إنه لا يمكن إقرار مبدأ بيع أو تكوين إدارة دولية فى أرض هى ملك له ! » .

مصر فى قبضة الديون

بلغ ما تحملته مصر وحدها من إنشاء نفقات القناة ما يزيد على النصف، أى مالا يقل عن ١٦ مليون جنيه ، فكانت القناة من الوجهتين المالية والسياسية وبالا على مصر . . ولا ريب أن شق القناة دفع إسماعيل إلى بعض وجوه الإصلاح ومجاراة المدنية الغربية . . وعجزت فرنسا عن تأييده مادياً أو أدبيا حيث خرجت منهوكة القوى بعد الحرب السبعينية ، فتحينت انجلترا الفرصة وأظهرت استعدادها لإقراضه . . فتحول الخديو إلى البيوت المالية الانجليزية وتحولت انجلترا من الدس ضده فى الآستانة إلى التوسط له عند السلطان فى تحقيق مطلبه فى وراثة العرش التى وقفت فيها موقف المقاومة على طول عهد عباس الأول ، فصدر الفرمان العثمانى بذلك ، ثم ما لبثت أن طلبت توسيع حقوق الخديو على لسان سفيرها فى الآستانة « هنرى أليوت » الذى صرح :

« بأن ما ناله الوالى من الحرية فى الإدارة الداخلية لا قيمة له ما لم تكن له الحرية المطلقة فى ارتياد الأسواق الأجنبية التى لا غنى عنها ، وفى إنجاز المشروعات الضرورية لتنمية الثروة المصرية » .

وكشف هذا التصريح عن نية انجلترا فى التدخل فى شئون مصر

حدث ما كان متوقعاً وتفاقمت أخطار الديون واستحكمت أزماتها حتى وصلت الحال إلى أسوأ درجة بسبب حرب الحبشة إلى أن اضطرت

الحكومة إلى بيع حصتها فى شركة القناة . . فسارعت انجلترا أيضاً للحصول على هذه الصفقة وما هى إلا فترة قصيرة حتى طلب الخديو من انجلترا إيفاد أحد الخبراء لإنقاذ الحالة المالية فأرسلت الحكومة لجنة برياسة المستر « كيف » عضو البرلمان لتقدم تقريراً وافياً عن الحالة الاقتصادية فى مصر .

وقد جاء فى هذا التقرير الذى استغرق وضعه شهرين :

« تشكو مصر من الجهل والإهمال والتبذير . . وتشكو كذلك من كثرة النفقات التى سببها إنجاز مشروعات إصلاحية ولكنها أنجزت بسرعة وبدون دراسة » .

واقترح للعلاج إنشاء إدارة للمراقبة المالية يرأسها موظف إنجليزى !

وهكذا خطت انجلترا بعد شراء أسهم القناة أول خطوة علنية للتدخل فى الشئون المصرية .

الرقابة الأجنبية :

وكما هى العادة فى كل المشروعات الاستعمارية اتخذت الأمور المالية أداة للاعتداء .

انتقلت الرقابة المالية إلى رقابة عامة على الحكومة المصرية عندما قبل إسماعيل حضور « لجنة التحقيق العامة » التى منحت سلطات واسعة فى الإشراف على الدواوين حتى وصل الأمر إلى ارتهان موارد الدولة وأراضيها ، بل تفننت الرقابة فى ابتداع الوسائل لتحصيل الضرائب ، ففرضت ضريبة السخرة يؤديها من يريد إعفاءه من العمل بغير أجرة



نوبار باشا
أحسن وسيلة للحصول على المال : احالة الضباط
الى الاستيداع

فى حفر الترع وتدعيم الجسور . وسيق آلاف المصريين كقطعان الماشية للعمل تحت لهيب السياط .

ولكن أخيراً وجدت الرقابة أن أفضل وسيلة للحصول على المال إحالة عدد كبير من ضباط الجيش يربو على الألف إلى الاستيداع . . فتجمهر الضباط واعتدوا على نوبار وولسن عند حضورهما لوزارة المالية لولا حضور الخديو الذى أنهى الأمر بسلام فأثنى القناصل عليه لحسن تصرفه . . فانتهزها فرصة ليخبرهم بأنه لن يكون مسئولا مالم تكن لديه السلطة الكافية ، فاستقال نوبار بحجة عدم ضمان الأمن والنظام .

وتعد هذه المظاهرة أول نذير بالثورة العرابية .

النهضة الفكرية :

بدأت الحياة تدب فى أطراف مصر فى نهاية حكم إسماعيل . . ونهضت طبقة تطالب بالإصلاح .

كانت الأذهان متفتحة . . ولكن من ينطق ؟

والأعين ناظرة . . ولكن ماذا ترى ؟

والأفكار مهيأة . . ولكن كيف تعمل ؟

لقد شكت الأقلام شدة الظمأ ، وأوشكت المحابر أن تجف . . وأصبح منهاج الحاكم وعدا يخلف ، ووجد الأجنبي المعول الذى يحطم به نهضة الوطن فى اجتذاب فريق من أبنائه والغرباء عليه ، أخذ يحقق رغبات الاستعمار وشهوات النفس من الاستحواذ على الضياع وسلب الأموال حتى أصبحت النفوس لا تستقر على حال .

أخذ العقلاء المصريون يفكرون فى التخلص من هذه الحال خصوصاً أن التدخل الأجنبى اشتدت وطأته ، وأثقلت الديون أرض الفلاح وغلته ومواشيه فكان المنفذ — كما يقول اللورد ملنر — هو الطريق للمرابى . . ومن لم يشك من المرابى يشك من الإدارة !

وتشاء الظروف أن يهبط وادى النيل فى ذلك الوقت الشيخ الثائر « ثائر الشرق الأول » الشيخ جمال الدين الأفغانى الذى قيضه الله للشرق يدا هزته بقوة وعنف فأيقظته من غفوته ، وأخذت بيده من قاع البئر ، فقد كانت الثورة والثورة الدائمة أسلوبه وطابعه ، فليس غريباً إذن على من وقف فى هذا العهد الذى خيم عليه الظلام والذى خيل للناس أنه ظلام لن يعقبه نهار . . ليس غريباً إذن على من وقف فى هذا العهد منذ ثمانين عاما ليذكر الشعب بحقه فى قوة وجرأة وعنف أن يطلق عليه الثائر الأول.

والشعب فى هذا الوقت لم يكن ينظر إلى الحاكم إلا بأنه السيد المطاع !

ليس غريباً إذن أن يكون الثائر الأول من يخطب فى عهد إسماعيل فى صرخة عالية مدوية :

« أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتنبت منها ما تسد به الرمق وتقوم بأود العيال . . فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك » ؟ .

بهذه الجرأة التى لم يكن للناس بها عهد كان جمال الدين يكافح الاستبداد . . وبهذه الجرأة أيضاً كان جمال الدين ينزع قناع الذل والهوان عن الضعفاء والمستضعفين . لقد كان يؤمن بفكرة تنبعث من ذلك القلب

الذى يتأجج بالثورة . والثورة لا تقف عند حد الإطاحة بالحكام الفاسدين بل تتعداها إلى قلب النظم الفاسدة ، تلك النظم التى قوامها ليس الحاكم الفاسد وحده بل الشعب الذليل أيضاً ، إذ لن يكون هناك أبداً إصلاح بتغيير الحاكم مالم يكن مصحوباً بتغيير المحكوم ، فلولا العبيد ما كان الأسياد . . ولولا الذل ما كان الاستعباد !

وعلى هذا حمل جمال الدين سوطاً قوياً يقرع به الشعب المترنح تحت وطأة الطغاة المستبدين حتى أخذ عليه البعض عنفه وتطرفه إلا أنه كان يقوم بمهمة « قارع الطبول » فى بداية المعركة . . وهذه يجب أن يعلو صوتها حتى يخترق آذان الخاملين ! فلم يحجم عن أن يصارح قومه برأيه ويصرخ فيهم بأعلى صوته عند الصلاة :

« لقد تناوبتكم أيدى الغاصبين وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، ويهيض عظامكم بأداة عسفه ، وأنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة لا حس لكم ولا صوت .

انظروا أهرام مصر ، وهياكل منفيس ، وآثار طيبة شاهدة بمنعة آبائكم وأجدادكم .

هبوا من غفلتكم ، واصحوا من سكرتكم . . وانفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول وعيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء أو موتوا كراما شهداء ! » .

ثم ينعى على المصريين فى مكان آخر تفرقهم ويدعوهم إلى الاتحاد ونبذ الاختلاف والتشريد فى كلمته الخالدة :

« إن أقتل أدواء الشرق داء انقسام أهليه ، وتشتيت آرائهم واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف . وقد اتفقوا على ألا يتفقوا .. ولا تقوم على هذا لقوم قائمة » .

ولم تكن المجاملة التى أضفاها عليه الخديو إسماعيل من اكرامه واجراء مرتب ثابت عليه لتجعله يغض الطرف عما يراد بالبلاد ، بل انبعثت الأحاديث الملتهبة فى صدره تشع النور والنار :

« إن الإسلام والذل لا يجتمعان فى قلب واحد » .

وشاءت عجلة الحوادث أن تخدم الثورة ، فقد أخذ اسماعيل يلتمس الأساليب للتخلص من السيطرة الأجنبية فعمد إلى إنشاء مجلس شورى النواب ليكون معبراً عن إرادة البلاد ، كما ألف الشيخ جمال الدين أول حزب سياسى فى مصر أسماه : « الحزب الوطنى الحر » كان من أعضائه محمد عبده والبارودى وعبد الله نديم والمويلحى والشريعى . .

وتبلورت الأفكار حول شعار هذا الحزب الذى لم يسمع عنه من قبل فى مصر ألا وهو « مصر للمصريين » .

وقد وقف هذا الحزب عقبة كأداء فى سبيل تحقيق أغراض المستعمر . وكانت التربة صالحة لنمو بذور الاصلاح ، فما أسرع أن نمت بذرة الحرية . وظهرت فى البلاد حركة حرة كأعظم ما تكون الحركات الحرة انبعثت منها نهضة صحفية ونهضة اجتماعية حمل لواءها الشيخ محمد عبده . وما لبثت

أن تجاوبت عناصر الأمة مع هذه النهضة الفكرية حتى الخديو أراد الاستفادة من هذه الحركة لمحاربة التدخل الأجنبي الذى أبطل حقوق الحاكم والمحكوم على السواء . . وساير الخديو اسماعيل رغبة الشعب لاسترداد مكانته ونفوذه وسلطانه . فأثار عليه الأجانب وعزل من الولاية ! . . .

الثورة

توفيق



الخديوى توفيق
« ورث العرش والثورة »

ورث توفيق عن اسماعيل العرش والثورة معاً ، فقد تجمعت عوامل الثورة قبل عهده ثم شبت أيام حكمه .

كانت الثورة انفجاراً سببه ما كانت تعانيه البلاد من الحكم المطلق ، والضائقة المالية ، وتدخل الأجانب .

لقد ظل توفيق يذكر دائماً أن الأجانب هم الذين عزلوا أباه ، ولذلك غالى فى استرضائهم ، وذهب يلغى الحكم الدستورى فى البلاد ، ويحارب دعاة الإصلاح بالتشريد ، فنفى الشيخ الثائر « جمال الدين الأفغانى » .. وطبيعى أنه كان سيلقى مقاومة من الهيئات بسبب هذا السخط فى كل مكان .

ولكنه كان فى الجيش على طراز آخر ؛ إذ كان الجيش هو الهيئة الوحيدة

التى لم يسيطر عليها النفوذ الأجنبى حتى ذلك الحين . . كان معظم أفراد هذا الجيش من الضباط والجنود المصريين الوطنيين الذين يجرى فى عروقهم الدم المصرى الأصيل ، والذين كانت تتحرق نفوسهم شوقاً للثورة على كل دخيل ، أجنبياً أوروبياً كان أو شركسياً ، يريدون إنهاء سيطرته حتى يعم خير البلاد بنيها ، بعد أن حرموا خيراتها زمناً طويلا ...

وشعر هؤلاء الضباط والجنود بمثل ماأحست به طبقات هذا البلد من الحرمان ، وأحسوا الحقد الذى يحمله المستعمر لأبناء هذا الوطن . . فالرواتب ضئيلة والسلطة بالنسبة للضباط المصريين فى جيشهم وممارسة حقوقهم تكاد تكون معدومة .. والأجنبى يصول ويجول .. وحاكم البلد يقذف بالوطن لقمة سائغة فى أفواه الطامعين ، وكل هذا مهد للمطالبة بالحق .. والسخط على الحاكم ! فسارت البلاد نحو الطريق الطبيعى للثورة : السخط فالتظاهر فالعصيان فالثورة فالحرب !

مظاهرة قصر النيل

فلقد كان المتصرف فى الجيش فى ذاك الوقت ضابطاً شركسياً يتولى منصب وزير الحربية هو الفريق عثمان رفقى (باشا) . وكانت تصرفاته كافية وحدها لإشعال الثورة ، فلقد أذاق المصريين من كيده وظلمه بقدر ما أفاض على الشراكسة من عطفه فذهب ينعم بالترقيات ، ويولى الضباط الشراكسة والأرناءوط والأتراك مناصب الجيش الممتازة فى حين لاينال الضباط المصريون الذين كان يسميهم فلاحين سوى العزل والإبعاد !

وجزى الله الشدائد كل خير فلقد ألف الظلم بين قلوب المصريين ، وجمع شتاتهم تحت راية ضابط توافرت لديه صفات الزعامة لما كان يتمتع به من شخصية قوية ، أجمعت النفوس على محبته والانضواء تحت لوائه حيث كان أشدهم سخطاً على الظلم والطغيان .



أحمد عرابى
« أجمع الضباط على زعامته »

وكان هــــذا الضابط هو الأميرالاى أحمد عرابى قائد آلاى العباسية .

ولم تطق نفوس الضباط صبراً عندما هم الوزير الشركسى بعزل القائمقام أحمد عبد الغفار قائد السوارى ليعين قائداً شركسياً فى مكانه ، وتنزيل الأميرالاى عبد العال حلمى قائد آلاى طرة ليكون معاوناً بديوان الجهادية وإحلال ضابط آخر يجرى فى عروقه الدم التركى . . وعلق عرابى على هذه القرارات لزملائه بقوله :

« إن هذه لقمة صلبة لايقوى عثمان رفقى على هضمها ! »

وحين سمع الضباط بهذه الأوامر علاوة على إيصاد باب الترقى فى وجوههم تجمعوا فى منزل عرابى . . وفى موجة حماستهم أخرجوا

المصاحف واستلوا السيوف . . وأقسموا عليها أن يعارضوا هذه القرارات وأنهم يفدونه ويفدون الوطن بأرواحهم .

قدم عرابى وصاحباه الأميرالاى على فهمى قائد الحرس الخديوى والأميرالاى عبد العال حلمى قائد طرة مذكرة لرئيس الوزراء رياض (باشا) يطالبون فيها عزل عثمان رفقى وزير الحربية وإسناد منصبه إلى وزير وطنى . . فوعدهم رياض باشا بالنظر متظاهرا بعدم السخط أو الغضب ولما مضى أسبوع ولم يتم شيء أعاد ثلاثتهم عرض المذكرة على رياض فى داره فتوعدهم مهدداً . . ولكنهم لم يتراجعوا لإيمانهم بأن مطلبهم حق وعدل .



اللواء عبد العال حلمى
« من قائد لواء طره الى معاون الجهادية »

لم تسلك الحكومة الطريق السليم ، فلم تنظر الشكوى وتحقق فيها بالعدل ، فتنصر المظلوم وترد لأبناء مصر كرامتهم . . بل إنها لم تحافظ على هيبتها وكرامتها كحكومة ذات قوة وسلطان ، فعمدت إلى انتهاج أسلوب ملتو لا يجمل برجال مسئولين أن يسلكوه ، فقد قرر مجلس الوزراء محاكمة الضباط الذين قدموا المذكرة على

أن يعهد إلى وزير الحربية عثمان رفقي بتنفيذ هذا القرار الذي اتخذ بصفة سرية .

لم يتبع عثمان رفقي الأصول العسكرية نحو إعلان الضباط الثلاثة بقرار المحاكمة كما ينص القانون ، بل تظاهر بدعوتهم إلى ديوان الوزارة كي يبحثوا معه في ترتيب إجراءات الاحتفال بزفاف شقيقة الخديو . . ولما كانت العادة عدم استدعاء قواد الآلايات للاجتماع بالوزير في مثل هذه المناسبات فقد قابلوا الأمر بالريبة إلا أنهم اتفقوا مع باقي الضباط على أنه إذا ما تأخر بقاؤهم في الديوان فستكون هناك مؤامرة قد دبرت ضدهم ، ويستلزم ذلك العمل على خلاصهم .

وما كاد ثلاثتهم يدخلون ديوان الوزارة حتى وجدوا أنفسهم بين صفوف مسلحة من ضباط وجند الشراكسة تقبض عليهم وتنزع سيوفهم ، وتجردهم من علامات رتبهم في مهانة وذلة ، وتسمعهم سيلا من عبارات القذف والسب .

وفي الحال التأم المجلس العسكري ، بحضور كبار الضباط ووزير الحربية وبدىء في تلاوة الادعاءات الخاصة بمحاكمتهم وكانت الساعة حوالى الواحدة ظهراً . .

وهنا أحس الضباط تأخر عرابي وزميليه وانكشفت المؤامرة عندما أبلغهم بعض ضباط حرس الخديو موضوع المحاكمة والقبض على زعمائهم .

وأقسم الضباط على المصحف والسيف أن يفنوا في سبيل الله والوطن ،



محمد عبيد

اقتحم أسوار ثكنات قصر النيل ، ودك الحصار ،

ولولاه ما استمرت الثورة

فهاجوا جميعا ، ونهض البكباشى محمد عبيد — بطل معركة التل الكبير فيما بعد وأحد أبطال هذه الثورة — يجمع الجند استعداداً للسير ، وحين أراد قائده خورشيد بك الاستفهام عن سبب تحرك الجنود أمر بالقبض عليه .. وسار الآلاى بقيادته إلى قصر النيل ، وبينما كان الآلاى فى طريقه رأى الخديو الجنود وهم يتحركون . . فأحس أن البناء يتداعى ، فبعث إليهم كبير ياورانه الفريق راشد حسنى « المعروف بأبى شنب فضة » ليعدلوا عن قصدهم .. ولكن لم تجد نصيحته نفعاً !

وصل الآلاى قصر النيل وأحكم البكباشى عبيد حصاره ثم أمر سريتين بالاستعداد وتركيب السناكى واقتحام أسوار الثكنات . . وما هى إلا لحظات قصيرة حتى ألفى الشراكسة أنفسهم محاصرين بالضباط والجنود والفلاحين فتولاهم الرعب وبادر عثمان رفقى بالفرار فى حالة مخزية من إحدى النوافذ الخلفية . . وأخذ الضباط والجنود المصريون يبحثون عن زعمائهم المعتقلين حتى ألفاهم البكباشى محمد عبيد فى إحدى الزنزانات ففك قيودهم بين فرحة الضباط وابتهاج الجنود .

وخرج الزعماء الثلاثة منتصرين على رأس آلاياتهم متجهين إلى عابدين ، . ولم يكد يصل آلاى طرة نبأ اعتقال قائده عبد العال حلمى حتى قام البكباشى خضر أحد ضباط هذا الآلاى بحجز قائد الآلاى الجديد ومعه كبار الضباط فى إحدى غرف القشلاق وتحرك بالجنود لنجدة الزعماء من براثن الشراكسة . . وما كاد العساكر يركبون القطار حتى

اتصل معاون محطة طرة رأساً بالخديو يطلعه على تمرد الجنود وتحركهم إلى قصر النيل . . ولكن كان هذا النبأ قد وصل بعد الإفراج عن الزعماء فأرسل الخديو إلى البكباشى خضر ياوره ينصحه بالرجوع بالجنود إلى الشكنات حيث قد صدر العفو عن الزعماء وإطلاق سراحهم . . فلم يلق البكباشى خضر له بالا واستمر فى طريقه محذرا ضباطه وجنوده من مكايد السراى ؛ فربما يكون فى الأمر خدعة ، مؤكداً أنه لابد أن يصل الآلاى إلى قصر النيل حتى يستوثق الجيش من سلامة زعمائه .

وصل الآلاى إلى عابدين فاستقبله الآلاى الأول بالتحية العسكرية وعزف الموسيقى . . واحتشدت الجماهير تشاهد هذا المنظر غير المألوف .

.. كل هذا والخديو يراقب احتشاد الجنود بين تحية الجماهير فأدرك خطورة الموقف واستدعى وزراءه ومستشاريه وتشاور فى الأمر ، فأشار سامى البارودى باشا وكان وزيرا للأوقاف باجابة طلبات الجنود فى لباقة .

« إنهم يهتفون للخديو . . إنهم مثال الطاعة . . فما الضير من تحقيق مطالبهم العادلة ؟ »

أحنى الخديو رأسه ونزل عن كبريائه وأذعن للأمر الواقع وأعاد الزعماء الثلاثة إلى مناصبهم وعين « محمود سامى البارودى » وزير الأوقاف وزيراً للحربية .

انتصر الفلاح ، والتف حوله الفلاحون ورأوا فيه الفلاح الذى استطاع أن يهزم الشراكسة ويتحدى الخديو ويثور ضد الظلم والطغيان .

ولم يكن هذا شيئاً مألوفا فى مصر فإن مافعله عرابى فى ذلك اليوم كان

كافيا ليجعله رجلا مرموقا تتجه إليه أنظار العسكريين والمدنيين على السواء .
إذ كان اقتحام قصر النيل لفك الزعماء الوثبة الأولى على قصر عابدين لانتزاع الدستور .

وبهذه المظاهرة دخلت الثورة العرابية مرحلتها الأولى .

وثبة الجيش على عابدين :

وكدأب المستبدين حنى رياض رئيس الوزراء هامته وكانت هذه أول مرة ينحنى فيها رياض أمام رغبة فئة من المصريين .. بل أكثر من ذلك أخذ يخطب ود الضباط ابتهاجا بتلبية مطالبهم . . إلا أنه ظل يتربص كالثعلب وفى احدى الأزمات استقال البارودى وخلفه داود يكن (باشا) ابن عم الخديو وهمت الوزارة ثانية تريد البطش برجال الجيش حيث أصدر وزير الحربية الجديد منشورا نبه فيه على جميع الضباط بعدم ترك مراكز آلاياتهم ليلا أونهارا إلا طبقا للأوامر كما أنذر بأنه إذا اجتمع ضابطان أوأكثر فسيصير القبض عليهم برجال الضبطية .

أدرك الضباط ما يراد بهم فنظموا صفوفهم . . ولما لمسوا دقة مركز الحكومة وما يحاط بها من دسائس ، ومن تسرب النفوذ الأجنبي فى مرافق الدولة ، ومن كره الشعب لها بيتوا النية على قلب نظام الحكم الشركسى وتوطيد حكومة دستورية فى البلاد على أن يكون ذلك فى مظاهرة وطنية شاملة . . كما رأوا أنه لضمان نجاحهم لا يكفى الاعتماد فقط على رجال الجيش وحدهم فقاموا بالاتصال برجال الحزب الوطنى الحر الذين ضاقوا باضطهاد الحكام ، وبالأعيان الذين أغفل وجودهم ، وبالعلماء الذين أضحوا

لا رأى لهم ، ولما استوثقوا من تأييد شريف والبارودى وسلطان وقد حصل لهم على توكيل أمضاه النواب ووجوه الأقاليم سرا رأوا أن هذه اللحظة هى المناسبة لتنفيذ خطتهم ولاسيما بعد اختفاء أية بارقة أمل فى اصلاح الموقف بعد إقالة القنصل الفرنسى دى رنج « الذى كان يرى تنفيذ مطالب الضباط باستقالة وزارة رياض ليحل محلها وزراء مصريون لم يرتكبوا الأخطاء التى تؤدى إلى الثورة العسكرية .. ولكن الحكومة وقد لاحظت تأييد « دى رنج » للشعب المصرى تخلصت منه مما سبب سخط الرأى العام الفرنسى فى مصر وخاصة بعد بقاء المراقب الفرنسى « ديلينير » صنيعة اللورد « بينكفلد » وصاحب اقتراح تحويل السكك الحديدية المصرية والملاحة فى النيل إلى شركة انجليزية .



اللواء على فهمى
« السياسة خدعة »

حدد عرابى يوم ٩ من سبتمبر سنة ١٨٨١ لتحرك الجيش إلى عابدين حيث خاطب جميع الآلايات التى بالعاصمة لموافاته بميدان عابدين فى الساعة الرابعة لعرض طلباتهم على الخديو .

احتشد الجيش فى الموعد المضروب وكان أول من حضر آلاى الفرسان بقيادة الأميرالاى أحمد عبد الغفار ، فقد كان فى بدء الحركة

أشد الناقمين على الحكم الشركسي حيث عزله عثمان رفقي (باشا) من منصبه بدون سبب .. ثم آلاى العباسية بقيادة عرابى يصحبه آلاى المدفعية وكانت بطاريات المدافع تتخلل أورط المشاة .

سار كل شيء طبقا لما أعده عرابى إلا أنه لاحظ خلو الميدان من الأميرالاى على بك فهمى الديب أحد الزعماء الثلاثة . . وبالسؤال عنه أخبره بعض الضباط بأنه وزع آلاى الحرس — وقد كان قائدا له — داخل السراى وبأنه مون هذا الآلاى بكمية وافرة من الذخيرة للدفاع عن الخديو إذا دعت الحاجة فبعث عرابى إليه أحد الضباط .. ولما حضر سأله عرابى عن سبب نقض اتفاقهم وتوزيعه الجنود على منافذ السراى من الداخل ، فطمأنه على فهمى قائلا له : « إن السياسة خداع ! »

وعلى الفور أمره عرابى بسحب الآلاى ليأخذ مكانه فى الميدان كبقية وحدات الجيش . فخرج آلاى الحرس واصطف فى المكان المعين له . . ثم حضر آلاى قصر النيل بقيادة بعض ضباطه حيث امتنع قائده وكبار ضباطه من الخروج . . وأخيرا قدم الآلاى السودانى من طرة بقيادة عبد العال حلمى وبذلك اكتمل الجيش فى عابدين . . وبلغ عدد الجنود أربعة آلاف بأسلحتهم ومدافعهم وخيلهم . . وغصت أطراف الميدان بالجموع الحاشدة تشاهد هذا الموقف الرهيب ؟

وفى الوقت الذى كان يتجمع فيه الجيش كان الوزراء والمستشارون والمراقبون الأجانب يتوافدون على السراى . .

وأخيراً خرج الخديو إلى الجيش ظنا منه أنه بنزوله إلى الميدان

يستطيع — بما له من الهيبة التقليدية — صد الضباط والجنود عن التمرد ، فنزل من السراى يحف به المستر « كوكسن » القنصل الانجليزى فى الاسكندرية حيث كان القنصل العام المستر « مالت » متغيباً فى بلاده والسير أوكلن كالفن المراقب المالى ، وبعض ضباط الياوران . . وما أن وقع نظره على عرابى حتى ناداه . . فتوجه إليه عرابى راكبا جواده شاهراً سيفه وخلفه ثلاثون ضابطا شاهرين سيوفهم كحرس له . . فلما دنا من الخديو بادره قائلا :

« ترجل يا عرابى . . وأغمد سيفك » !

فامتثل عرابى . . ثم صاح الخديو بالضباط الذين جاءوا خلف عرابى « أغمدوا سيوفكم . . وعودوا إلى أماكنكم » .

« فلم يفعلوا وظلوا ثابتين »

ثم التفت الخديو إلى عرابى الذى حياه التحية العسكرية فبادره قائلا :

« ما أسباب حضورك بالجيش هنا ؟ »

فأجابه عرابى :

« جئت يا مولاى أعرض عليك طلبات الجيش والأمة وكلها طلبات عادلة » .

الخديو :

« وما هذه الطلبات ؟ »

عرابى :

« إسقاط الوزارة المستبدة ، وتشكيل مجلس النواب ، وإبلاغ عدد الجيش إلى العدد المحدد له فى الفرمانات » .

فقال الخديو :

« كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها — وأنا خديو البلد وأعمل زى ما أنا عاوز ! »

ويقال إن كلمة عبيد أتت على لسانه . . فاجاب عرابى :

« لقد خلقنا الله أحراراً . . ولم يخلقنا تراثا ولا عقاراً . فوالله الذى لا إله إلا هو لن نكون عبيداً بعد اليوم » .

فلما وصل الحوار إلى هذا الحد أشار المستر كوكسن على الخديو بالرجوع إلى السراى وأقبل معه كلفن المراقب المالى يخاطب عرابى بالنيابة عن الخديو :

إن طلب إسقاط الوزارة من حقوق الخديو . .

وطلب تشكيل مجلس النواب من حق الأمة لا من حقوق الجهادية

ولا لزوم لطلب زيادة الجيش لأن المالية لا تساعد على ذلك .

عرابى :

أعلم يا حضرة القنصل أن طلباتى المتعلقة بالأهالى لم أعمد إليها إلا لأنهم أقامونى نائباً عنهم فى تنفيذها بوساطة هؤلاء العساكر الذين هم عبارة عن إخوانهم وأولادهم فهم القوة المنفذة لإرادة الشعب ، وإننا لا نستطيع أن ننزل عن طلباتنا . . ولن نبرح هذا المكان ما لم تنفذ !

القنصل :

وماذا تفعل إن لم تجب مطالبكم ؟

عرابى :

أقولها كلمة أخرى .

القنصل :

وما الكلمة ؟

عرابى :

لن أقولها إلا عند اليأس والقنوط .

القنصل :

علمت من كلامك أنك ترغب في تنفيذ اقتراحك بالقوة . . وهذا أمر ينشأ عنه ضياع بلادكم .

عرابى : كيف يكون ذلك ؟

ومن ذا الذى يعارضنا فى إصلاح داخليتنا ؟ اعلم أننا سنقاوم من يتصدى لمعارضتنا أشد المقاومة إلى أن نفنى عن آخرنا .

القنصل : وأين قوتكم التى ستدافعون بها ؟

عرابى : عند الاقتضاء يمكن حشد مليون من العساكر يدافعون عن بلادهم ويلبون إشارتى

وهنا انقطع الحوار !

ولم تمض ساعتان والجيش واقف فى مكانه لا يريد أن يتحرك حتى تنفذ مطالبه . فاضطر الخديو فى نهاية الامر — إذ لم يكن له سند أو قوة يستطيع أن يعارض بها مطالب الجيش ، ورغبات الشعب كما وجدها فرصة للتخلص من رياض لاستئثاره دونه بشئون الحكم — اضطر إلى أن يوافق على قبول هذه المطالب تدريجيا بإعفاء رياض من الوزارة وإسنادها إلى شريف ، ووعد بإجابة المطلبين الآخرين .

وهكذا كان يوم وثبة الجيش على عابدين — يوما مجيداً فى تاريخ مصر حيث أحنى الخديو رأسه لمطالب الأمة العادلة .

مذكرة ٨ من يناير سنة ١٨٨٢ .

غير أن الانتصار الشعبي والنهضة الدستورية التى عمت البلاد لم ترق فى نظر الأجنبي الذى أظهر تبرمه أكثر من مرة من النظام الدستورى فظل يتربص حتى انتهز فرصة معارضة الهيئات الشعبية فأرسلت انجلترا وفرنسا مذكرة مشتركة فى ٨ من يناير سنة ١٨٨٢ جاء فيها :

« إن الحكومتين متفقتان كل الاتفاق على ضرورة منع أسباب الارتباك داخلية أو خارجية ويكون من شأنها تهديد النظام القائم فى مصر ولا شك أن إعلان هذا التصريح الرسمى سيمنع حدوث ماعسى أن يطرأ من الأخطار التى قد تتعرض لها حكومة الخديو »

وكانت هذه المذكرة أول مظاهر التستر وراء حماية الخديو لتحقيق أغراض إنجلترا فى احتلال مصر .

كما أنها كانت أيضاً أول مظاهر التجمع بين الدولتين المتنافستين انجلترا وفرنسا . ويبدو أنه لما أحس المستعمرون بتكاتف الوطنيين حول مطالبهم ألف ذلك بينهم . .وجمع شتاتهم !

استقالة شريف :

نزع هذا التدخل القناع عن وجهه فبعد أن كان خفيا مستتراً أضحى جليا سافراً حيث تقدم قنصلا الدولتين بمذكرة فى ٢٦ من يناير سنة ١٨٨٢ بإيعاز من المراقبين الأجنبيين ألا يخول مجلس النواب حق تقرير الميزانية .



محمد شريف باشا
« الربان . . الذى تستند به الثورة أثناء العاصفة ! »

حقيقة ان هذا تحد بالغ لكرامة البلاد . . ولكن (شريف) فكر بعقلية الرجل السياسى ورجل الدولة ورأى تفاديا من التدخل المسلح — حيث بات واضحاً أن البلاد أصبحت هدفا للاحتلال العسكرى — أن يرجىء النواب البت فى هذا الأمر حتى تمر الأزمة بسلام ، ولكن غلب الرأى القائل بضرورة تقرير نظر الميزانية فى الحال .

كما وجدها الحزب العسكرى فرصة للتخلص من شريف ، وبهذا فقدت

الثورة باستقالته روح الاعتدال وأصبحت السيطرة للحزب العسكرى باسناد الوزارة إلى البارودى .

وهكذا دخلت الثورة مرحلتها الثانية .

محاكمة الضباط الشراكسة .

وظلت عين المستعمر تتربص وتدبر كى تتحين الفرصة التى واتتها بحلول أزمة سياسية خطيرة بين الخديو والوزارة إثر مؤامرة الضباط الجراكسة الذين اتهموا بمحاولة قتل عرابى فى ١٨٨٢.٤/١٩ وقد قضى المجلس العسكرى على أربعين منهم بالتجريد من رتبهم وبالنفى المؤبد إلى السودان .

فرأى الخديو تخفيف الحكم كما أشار ممثل انجلترا عليه بعرض الأمر على الباب العالى .

اشتد النزاع وتطور الموقف وزاد الموقف حرجا إعلان البارودى ضرورة انعقاد مجلس النواب للاحتكام إليه .

كان لهذا الإعلان خطورته ، إذ أن الدعوة إلى اجتماع مجلس النواب يجب أن تصدر عن الخديو .. وفى هذا الوقت وصل الوفد العثمانى الذى حضر للتوفيق بين الجانبين المتنازعين ، ولكن لم يكد هذا الوقد يطأ أرض مصر حتى كتب مستر « مالت » إلى دولته انه لابد من حدوث اضطرابات قبل تسوية المسألة المصرية . . وان الأصوب استعجال هذه الاضطرابات لاتأجيلها .. حتى يستساغ التدخل العسكرى !

ثارت انجلترا واستثارت معها فرنسا .. واستغلت الشقاق بين الخديو

والوزارة فقررت الدولتان إرسال أسطوليهما إلى مصر بحجة أن دعوة مجلس النواب بدون أمر الخديو والجاهرة بخلعه عن العرش يعتبران عملين ثوريين يستوجبان التدخل .. !

وسوغت الدولتان هذا العمل البغيض بحمايتهما لرعاياهما الأجانب ووقايتهم من الأخطار التي يستهدفون لها ..

الأساطيل .. !

حضرت الأساطيل وتوالت الانذارات تطلب استقالة الوزارة واقصاء عرابى وتنحية بعض الضباط ، فقررت الوزارة رفض هذه المطالب ، إلا أن الخديو أعلن قبول مطالب الدولتين ، فاستقالت وزارة البارودى فى ٢٦ من مايو سنة ١٨٨٢ محتجة على تدخل الأجانب ، ورضاء الخديو عن هذا التدخل !

وهنا يحق للقلم أن يتوقف ليعترض على ما كتبه الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه (أحمد عرابى) .

« . . ولو أن (عرابى) قبل هذه المقترحات : استقالة الوزارة ، واقصاءه عن القطر ، وتنحية بعض الضباط . وغادر البلاد ، لكان ذلك تضحية منه فى سبيل مفاداتها من التدخل المسلح ! » .

فهل نسى أستاذنا الكبير أن هذا التدخل المسلح كان سيقع حتما ، حتى لو لم تقع مذبحة الاسكندرية ، أو بعبارة أخرى مشاجرة الحمار والمالطى .

ان الحوادث كانت تجرى فى طريقها المرسوم . . ».

والمؤامرة كانت محتمة الوقوع فى إثر أى حادث أوعقب أى إنذار. حتى لو لم تقع مذبحة أو مشاجرة ، فالمستعمر كان يحفظ فى جعبته الكثير وكان يسنده فى مواقفه ، ويمهد له الطريق الجالس على العرش «توفيق» !

وما لبث أن تفاقمت الحال فقد هدد الجيش والبوليس معاً بأنه إذا لم يعد عرابى وزيراً للحربية فى خلال ١٢ ساعة فإنهم يصبحون غير مسئولين عما يحدث .

وعلى هذا أرغم الخديو على إعادة عرابى وزيراً للحربية فى ٢٧ من مايو سنة ١٨٨٢ وبقيت جميع الوزارات الأخرى شاغرة وظلت البلاد بلا وزارة مسئولة فترة من الوقت .

أخذ عرابى على عاتقه تحمل مسئولية الأمن فى البلاد ، وفى الوقت ذاته أخذ العدو يدبر المؤامرات والخطط ، فحرض قناصل الدولتين رعاياهم على النزوح من القاهرة والأقاليم إلى الإسكندرية ؛ ليكونوا تحت رعاية الأساطيل حتى غصت الإسكندرية بالأجانب . . وكان احتشادهم هذا من الأسباب التى أدت إلى توتر الحال ، كما أشاع سماسرة الدولتين احتمال وقوع القتال بين الوطنيين والأجانب .

وافتضح المستور ، وانكشفت المؤامرة التى أخذت تعدو سريعا إلى غايتها المرسومة من قديم ، وكانت هناك حاجة إلى علة فوجدت العلة العاجلة فى حينها ، وحدثت مذبحة يونيو فى اليوم الحادى عشر فى الإسكندرية . . وهكذا لجأت بريطانيا إلى حجة تتذرع بها لإرتكاب الجريمة . . .

والحادثة فى ذاتها من النوع الذى يحدث عادة فى الموانى حيث تكثر الطبقات والأجناس : فقد حدثت مشاجرة بعد ظهر يوم الأحد ١١ من هذا الشهر بين أحد المالطيين من رعايا انجلترا وحمار مصرى يدعى السيد العجان حول أجر حماره ، فاستل المالطى سكينا طعن بها المصرى فمات على أثرها . فاجتمع رعاع الأروام والمالطيين والقبرصيين وهم مسلحون بالبنادق والخناجر . . وأخذوا يهاجمون الوطنيين الذين كانوا يستطلعون الأمر ، فسقط الكثير من المصريين بين قتلى وجرحى . .وثارت جموع الوطنيين تحمل الهراوات وتطلب الانتقام فقتلوا ٤٥ أجنبيا ، وقتل من المصريين أكثر من هذا العدد بكثير ..

واستمرات الفتنة حتى الساعة السابعة مساء إلى أن حضر الجنود ومنعوا التجمهر ، وهدأت الحال

ولقد كان هذا الحادث نذيرا لما ستتمخض عنه الأيام ، ودافعا إلى هجرة الأجانب ، واسراع الخديو بالسفر فى اليوم التالى إلى الإسكندرية .

ويتهم العرابيون المحافظ (عمر لطفى باشا) بتدبير الحادث ، ويدللون على صحة ذلك بمكافأة عمر لطفى عقب تدبيره (الحادث) بتعيينه ناظرا للجهادية بعد عزل عرابى من وزارة اسماعيل راغب (باشا) .

ويؤكد الشيخ محمد عبده صحة هذا الرأى بقوله فى تقرير له كتبه فى منفاه بسورية :

« حقا إن أكثر من اتهموا ، ومن قبض عليهم بعد الحادث بيوم واحد ، كانوا يصيحون بقولهم : لالوم علينا فإن سعادة المحافظ هو الذى كان يأمرنا بأن نضرب وأن نسرق ! » .

ومن هذا يتضح أنه لايمكن أن يرقى الشك إلى اتهام عرابى بتدبير حوادث ١١ من يونيو كما يزعم خصومه ؛ لأن هذا الأمر مهما كانت نتائجة لن تكون فى مصلحته .

هذا هو المرجح ، أما الأمر الذى لاجدال فيه ، فهو أن الإنجليز لم يكونوا بمعزل عن هذا الحادث . . فالذى أشعل الفتنة مالطى من رعايا بريطانيا ، وقد اتضح من التحقيق أنه أخ لخادم القنصل البريطانى مستر كوكسن والذى كان له اليد الطولى فى تحريض الأجانب للتحرش بالوطنيين وسعيه الدائب فى تسليحهم .

ويتبين ذلك مما جاء فى كتابه إلى حكومته :

« إن قنصل السويد العام وصل اليوم إلى الاسكندرية وعرض على مشروعا للدفاع عن الأوربيين ، ورغب فى موافقة ممثلى الدول عليه . . وقد أجمع الممثلون على أن تسليح ثلاثة أو أربعة آلاف تمهيداً لهذا الدفاع عمل بالغ الخطورة . . وأنه بجانب ذلك عمل يفضى إلى التصادم فى أى وقت ، وعلى ذلك اتصل ممثلو الدول بدولهم كى لا يشاركوا فى شيء من هذا ! »

كذلك كان لزميله المستر « مالت » القنصل الانجليزى فى القاهرة ضلع فى هذه المؤامرة . . وليس أدل على ذلك مما جاء فى كتاب كرومر « مصر الحديثة » فى برقيته التى أرسلها إلى وزارة الخارجية البريطانية ، يقول فيها :

« إنه قد يقع فى أى وقت بين الأوربيين المسلمين صدام مسلح . . وإن التدخل العسكرى ضرورة لامفر منها » .

ومن هنا يتضح بل ويظهر جليا أن المسئولية كلها تقع على عاتق السياسة البريطانية الاستعمارية التى أمرت بإحضار الأساطيل ، فكانت سببا فى إثارة النفوس وهياج الخواطر ، وأوغرت صدور المصريين على الأوربيين ، وأغرت الأوربيين بالاعتداء على المصريين !

هذه الأساطيل التى كان الاستعماريون يزعمون أنها للحماية ، فى حين اشتم الوطنيون منها رائحة الإذلال حتى كانت الفتنة ووقعت المأساة . وكانت قنابل الأسطول بداية الاحتلال !

جناية جلادستون

على استقلال مصر

وقبل أن نتكلم عن بدء عمليات الحملة الانجليزية ، نرى لزاما علينا أن نوضح موقف الحكومة البريطانية من هذه الحملة وموقف حزب الأحرار الذى كان يتولى الحكم فى بريطانيا فى ذلك الوقت .

والمتتبع لكل مجريات الحوادث قبل الثورة العرابية ومراحل هذه الثورة وأسبابها لا يجد أية مشقة فى توجيه إصبع الاتهام إلى السياسة الاستعمارية . . والتى كانت تمثلها كل من بريطانيا وفرنسا . . وينفذها قناصل هاتين الدولتين والمراقبون الماليون ، بل لعل السياسة البريطانية كانت حرية بأن يوجه اليها اللوم أكثر مما يوجه إلى السياسة الفرنسية لتحلل هذه السياسة من جريمة الاعتداء السافر ، وإظهار المندوبين الفرنسيين فى بعض الأحيان عطفهم على الضباط المصريين ، ومطالبتهم بتحقيق مطالبهم العادلة . .

يؤيد هذا تتابع الحوادث ، وإن كان الأمر لا يخلو من تناقض السياسة الفرنسية وتخبطها فى بعض الأحيان ، ومن محاولة جلادستون رئيس الحكومة البريطانية تجنب استخدام العنف فى المسألة المصرية أو خلق

الاضطرابات فى وادى النيل . . وإن كانت النتيجة فى النهاية قد اضطرت جلادستون أن يصدر الأمر بضرب الاسكندرية ، ثم يعيد المأساة بإصدار الأمر إلى الحملة الانجليزية للقضاء على الثوار .

ولكن إنصافا للتاريخ نستطيع أن نقول إن الرجل كان لا يريد أن يكون هذا أسلوبه — مما سنشرحه فيما بعد — غير أن الدبلوماسية البريطانية فى هذه الحقبة من الزمن كانت ضالعة فى الأسلوب الاستعمارى وكانت قد تشربت بروح التقليديين أنصار « الأمبريالزم » (الاستعمار والتوسع) حتى أن بعض أعضاء حكومته من حزب الأحرار كان قد جرت فى عروقهم دماء سالسبورى ودزرائيلى اللذين كانا قد صاغا بسياستهما الخاصة إزاء المسألة المصرية سلسلة محكمة الحلقات بحيث غدا من الصعب على جلادستون بوصفه خليفتهما فى الحكم تحطيم هذه السلسلة والخروج من نطاقها الفولاذى .

فعند ما تولى جلادستون الحكم كانت فى رأسه فكرة ثابتة هى : القضاء على الخطوط الرئيسية لتلك « السياسة الخارجية » الدولية التى اتبعها غلاة حزب المحافظين كسالسبورى ودزرائيلى والتى كانت تعتمد على التلون والانتهازية ، لأن الرجل كان يؤمن بأن هذه السياسة ستقضى على سمعة بريطانيا فى العالم كله .

وكانت أمم الشرق فى تلك الفترة الحافلة بتياراتها تموج بأفكار تحررية جديدة ، وتبزغ فى محيطها ثورات وطنية تطالب بالاصلاح والدساتير ، وقد أثر عن جلادستون تأييده البالغ لقضايا الحرية فى هذه الأمم المكافحة

حتى لقد خطب مرة فى حفل سياسى كبير . . وكانت الأنباء تتوالى باضطراب الأحوال الداخلية فى أفغانستان (وكانت بعض صحف المحافظين تغرى الحكومة بالتدخل العسكرى . .) فقال :

« إن المساواة فى الحقوق بين شعوب العالم كبيرها وصغيرها أمر يقتضيه الواجب الأخلاقى ، وتتمسك به كل تقاليد الشرف ، ولنذكر جميعا أن قدسية الحياة الانسانية ذاتها — حتى فى أكواخ القرى الأفغانية المنتشرة وسط الجبال الثلوجة القحلاء فى صميم هذا الشتاء ، إنما هى من الحرية والقدسية فى نظر الاله الرحيم بالقدر الذى يساويها بحياتنا نحن البريطانيين فى قرى جزيرتنا المتحضرة ! »

وهكذا ما أن تسنح له فرصة لحديث أو لخطابة حتى ينهال على مبادىء المحافظين وأساليبهم السياسية . . وخاصة مبادئهم فى معاملة الشعوب بالاستنكار والتجريح .

. . ومع ذلك ، وبالرغم من كل هذه الجهود مجتمعة . . وبالرغم من كل هذه الكلمات التى لا ترتاب عند سماعها أو قراءتها أنها صادقة . . وبالرغم من هذه النية التى بان « صدقها » فى أكثر من تصرف ، وأكثر من مناسبة — كانت هناك ناحية معينة من نواحى العالم يخيم عليها ظل « دزرائيلى » الكثيف ، ويرتسم فى عمق طابعه الاستعمارى العنيف . . ؟

إنها مصر . .

مصر التى تفتحت عليها أعين السياسة البريطانية أكثر من ذى قبل .

منذ أن ضرب دزرائيلى ضربته السياسية البارعة بسرعة شرائه أسهم الحكومة المصرية فى قناة السويس من الخديو المفلس إسماعيل .

كان دزرائيلى زعيم المحافظين يحلم بخياله الاستعمارى أن تتم سيطرة إنجلترا فى يوم قريب على قناة السويس لا سيما فى ضمان المواصلات إلى الهند فحسب ، بل لأنها ستكون أيضاً سبيلا إلى الاستيلاء على مصر ذاتها . . وعلى إمبراطورية إفريقية مترامية الأطراف . . توسع سلطان التاج البريطانى وتمد فى رواقه . .

وبالفعل لم يمض على ذلك طويل وقت حتى كان أربعة أخماس المراكب المارة فى القناة تابعة لشركات إنجليزية .

وعند ما تولى جلادستون الحكم بعد دزرائيلى لم يشاركه فى كل أحلامه ، بل الواقع أن حكومة إنجلترا فى ذلك الوقت لم تطلب أكثر مما كانت تأمله . . وهو أن تطمئن على سلامة القناة كطريق ملاحى أصبح له خطره وشأنه فى مواصلاتها الامبراطورية — وهو أمر يتطلب (فى رأى جلادستون) وجوب العمل على استقرار الأحوال المالية والسياسية فى مصر ، بأقل حد ممكن من التدخل الأوروبى .

غير أنه ظهر عامل جديد على مسرح السياسة العالمية والمسألة المصرية :

فبينما كان جو مصر يغلى بالأحداث منذ منتصف سنة ١٨٨١ تيسر لفرنسا الاستيلاء على تونس فى مايو سنة ١٨٨١ ، وعاودتها أحلام التوسع الإمبراطورى الفرنسى فى قارة (الفرص والأحلام) . وأخذت فرنسا

تبرق وترعد وتفكر فى اتخاذ خطة حاسمة تلزم المصريين حدودهم . .
وبتولى « جامبتا » رياسة الوزارة الفرنسية بدأت العلاقات الفرنسية المصرية تدخل مرحلة حرجة ، فقد كان « جامبتا » من دعاة سياسة القوة التى هى مذهب الحزب الراديكالى الذى يرأسه .

ومع أن التحالف بين إنجلترا وفرنسا كان يبدو على أقوى ما يكون ، إزاء المشكلات الشرقية وبصفة خاصة مشكلة مصر ، كان جلاد ستون يرى أن حماية هذا الطريق الملاحى لا يتحقق بالتدخل الإنجليزى الفرنسى الذى كان « جامبتا » يدعو إليه جهارا نهارا ، بل يكفى تحقيقه تعزيز الأسطول البريطانى والحاميات الإنجليزية فى كل من جبل طارق وجزيرة مالطة . . هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى كان جلاد ستون يرى وجوب تشجيع حكومة مؤلفة من العناصر التركية والشركسية والوطنية فى مصر للسيطرة على الموقف وضمان كسب تعاونها مع كل من فرنسا وانجلترا .

وهنا اصطدم جلاد ستون بحقيقتين كبيرتين :

أولا هما — أن فرنسا كانت تمقت بتعصب تغلغل النفوذ التركى فى شمالى إفريقية ، لأنها كانت ترسم سياسة استعمارية توسعية فى المغرب ، ومن ثم فإنها تكره وتخشى أن تكون للامبراطورية العثمانية سيادة سياسية فى أية بقعة من إفريقية بوجه عام .

والحقيقة الأخرى ظهور حزب من (غلاة الأحرار المصريين) هو

الحزب الوطنى الذى اعتنق مبدأ « مصر للمصريين » لا للأتراك ولا للشركس ولا للأوربيين أصحاب المصالح الضخمة فى مصر .

وهكذا انقلب الوضع تدريجيا . .

ثم جاءت ظروف شغلت جلاد ستون عن تتبع تطورات مشكلة مصر بصورة مباشرة ، فقد نشبت الثورة البلغارية ضد الحكم التركى ، ثم الثورة الايرلندية الأولى بقيادة بارتل ، ثم بعد هذا كله اعتبارات مالية وثيقة جعلته يتفرغ لشئون الخزانة . . مما حدا به أن يترك شئون السياسة الخارجية فيما يتعلق بمصر بالذات لوزير خارجيته « لورد جرانفيل » .

وهكذا انتقل الوضع من محور إلى محور ، ووجد جلاد ستون نفسه تدريجيا بعيدا عن هذه المشكلة .

وكان جامبتا يطمح إلى تحقيق مشروع الاحتلال الفرنسى الإنجليزى المشترك لمصر ، ولكن جرانفيل كان أكثر دهاء وأبعد غاية من كل من جامبتا وجلادستون ، فقد استقل جرانفيل بسياسة خاصة نحو المسألة المصرية . . وساعده سقوط وزارة جامبتا على السير فى تنفيذها طبق تصمياته ، إذ كانت الحكومة الفرنسية التى خلفت حكومة جامبتا متحفظة إزاء سياسة التدخل فى الشئون المصرية ، وترى أن يتم هذا التدخل — إذا كان ثمة ضرورة إليه — على قاعدة دولية عامة ، وبمعاونة الباب العالى .

وحين فرغ جلاد ستون قليلا من مشكلاته . وتهيأ له أن يكرس وقتا أكثر للمسألة المصرية ، حاول أن يقنع رجال وزارته بوجوب اشتراك مؤتمر أوربى عام فى حل المسألة المصرية وخاصة أن الوزارة الفرنسية

القائمة حين ذاك تشترك معه فى هذا الرأى ، ولكن جرانفيل الداهية كان قد سار شوطا بعيدا فى سياسته ووجد من أعوانه الانجليز فى مصر وعلى رأسهم القناصل والمراقبون الماليون ماعاونه على امتلاك ناصية الموقف فى الوزارة الإنجليزية حتى لقد اكتسب إلى صفه أغلبية الوزراء الانجليز الذين ذهبوا معه إلى أن اقتراح جلادستون غير عملى .

وتعاقبت الأحداث فى سرعة مذهلة على المسرح المصرى إلى حد أن جلادستون — وهو على رأس حكومة الأحرار وهو الذى ينادى بوجوب اتباع سياسة تنهض على أساس الاستجابة الرامية لإملاءات العدالة والشرف يجد نفسه يتفق مع لورد جرانفيل على إصدار الأوامر الصريحة للأميرال سيمور بضرب الإسكندرية . . ثم يجد نفسه مرة أخرى « مضطراً » إلى أن يصدر هو وجرانفيل أيضاً أمراً إلى الجنرال ولسلى بضرب العرابيين فى معركة حاسمة واحتلال مصر . . وهكذا نفذ جلادستون مارسمه له خصمه دزرائيلى . .

واستباح جلادستون خرق حرمة الشعوب وهو الذى كان ينادى بوجوب العطف وتأييد الحركات الوطنية ووثبات الشعوب .

. . وهكذا تنكر جلادستون لمبادىء الأخلاق .. والعدالة .. والشرف وارتكب كل ما هو مناف لمبادىء الأخلاق . . والعدالة . . والشرف !

ميثاق النزاهة

لم يعد سراً بل صار أمراً شائعا بين الحكومات والساسة أن الانجليز يريدون السيطرة على مصر . . فرأت الدول وعلى رأسها فرنسا إحباط المحاولة البريطانية باتخاذ عمل حاسم لتسوية المسألة المصرية بالطريق الودى وعدم حلها بالضغط الأدبي أو بمجيء الأساطيل وقد بعث المسيو دى فرنسيه رئيس الوزارة الفرنسية إلى سفيره فى لندن لاقناع الحكومة الانجليزية بهذا الرأى . . فوافقت واقترحت انعقاد المؤتمر بالقسطنطينية وأن يكون أعضاؤه سفراء الدول الست العظمى لدى الباب العالى الذى عارض الاشتراك فى هذا المؤتمر بحجة أن الحال لا تدعو لذلك .. وأن الوفد الذى سبق إرساله برياسة درويش (باشا) كاف لفض الخلاف .

. . وأخيراً عقد المؤتمر فى ٢٣ من يونيو سنة ١٨٨٢ بسفارة إيطاليا بحضور ممثلى (بريطانيا وفرنسا وروسيا وألمانيا وإيطاليا والنمسا) بدون اشتراك ممثل للسلطان . . . وقد اتخذ المؤتمر فى بدء اجتماعه إعلان البروتوكول الخاص به والمعروف « بميثاق النزاهة » بناء على اقتراح سفير إيطاليا وهذا نصه .

« تتعهد الحكومات الممثلة فى هذا المؤتمر بأنها فيما ستتخذه من قرارات بشأن المسألة المصرية لا تريد أن تأخذ لنفسها أو لرعاياها أى

امتياز إقليمى أو تجارى فى مصر يكون خاصا بها ولا يكون للدول الأخرى الحق فى الحصول عليه ! » .

الضرورة القصوى !

هذا هو العهد الذى ارتبطت به الدول ومن بينها انجلترا فى مؤتمر الآستانة ولكن انجلترا حين أبرمته كانت تنوى نقضه كما نقضت سائر عهودها فى المسألة المصرية ففى الوقت الذى زعمت فيه الموافقة على هذا الميثاق كانت تستعد للحرب وتجهز جيشها لاحتلال مصر !

ففى اليوم التالى لانعقاد المؤتمر قرر المجتمعون عدم التدخل فى شئون مصر فى أثناء فترة انعقاد المؤتمر . . فعارض فى ذلك مندوب انجلترا وهو « اللورد دفرين » من أشهر سياسيي هذا العصر الذى أشار إلى أن الفوضى قد تمكنت من مصر من جراء ثورة الجيش وأن هذه الفوضى قد أدت إلى ارتباك الادارة ، وشل حركة التجارة ، وفقدان الثقة ، والتوقف عن سداد الضرائب حتى عجزت الحكومة عن الوفاء بديونها حيال الأجانب ، وتعرضت حياة الأوربيين للخطر . . واقترح أن يضاف إلى التعهد الأخير جملة « إلا للضرورة القصوى ! » .

.. وبإضافة هذه الجملة أصبح انعقاد المؤتمر عبثا فما أيسر أن تخلق انجلترا فى أية لحظة تلك الضرورة القصوى . والواقع أن انجلترا كانت قد وطدت العزم على الانفراد بالعمل . . وفى ذلك يقول اللورد كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » عندما جاء ذكر المؤتمر :

« ليس من الضرورى أن نقف طويلا عند إجراءات المؤتمر المملة . .

وقد كان اللورد « جرانفيل » واللورد « دوفرين » يفهمان تمام الفهم ماذا يريدان . . ولقد رغبا فى أن يوطدا النظام فى مصر وكانا يقظين إلى تلك الحقيقة التى مؤداها أنه بغير استخدام القوة المادية فلن يوطد ذلك النظام ! » .

ويذكر اللورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية لحكومة الاحرار فى ذلك الوقت واللورد دوفرين سفير انجلترا لدى الباب العالى يهمنا أن نقف قليلا عندهما فقد اتضح فى الصفحات (السابقة) الدور الذى قاما به لتسويغ الاحتلال العسكرى وصراعهما مع رئيس الوزراء البريطانى غلادستون رئيس حزب الاحرار الذى أراد أن يختط للسياسة البريطانية أسلوبا جديداً يبنى على قواعد الأخلاق والعدالة والشرف !

ولنعد إلى « ميثاق النزاهة » فقد انكشف المستور وأصبح واضحا أن إنجلترا تريد أن تسوغ لنفسها التدخل فى شئون مصر على أن يكون هذا التدخل حربيا بل أضاف اللورد دوفرين — تنفيذاً لستر أغراضه — أن انجلترا لا ترى أن يكون قمع الثورة فى مصر بوساطة انجلترا بل ينبغى أن يقوم بهذا الواجب صاحب الشأن فى ذلك وهو تركيا صاحبة الحق الشرعى .

قال ممثل انجلترا هذا — وهو واثق فى الوقت ذاته — من أن الحكومة التركية على ما هى عليه من التردد والضعف بحيث لا تقوم أو حتى تستطيع أن تفكر فى أن تقدم على هذه المهمة كما هى عاجزة

عن مجرد إرسال تجريدة عسكرية لإقرار هيبة السلطان ولاحجام السلطان أيضا بطبيعة الحال عن أن يظهر أمام المصريين — وهو خليفة المسلمين — بنصرة الدول المسيحية عليهم !

.. وهنا يخلو الجو لانجلترا وحدها في مصر لتتم بأساطيلها الرابضة في المياه المصرية خرق حرمة العهود والمواثيق !

ضرب الإسكندرية

شرع الأدميرال بوشامب سيمور « أميرال الأسطول الإنجليزى فى مياه الإسكندرية ينتحل المعاذير إلى فتح باب الشر والعدوان كى يحقق مطامع دولته وتعجل بضرب المدينة قبل وصول الأميرال « دويل » قائد أسطول بحر المانش — وكان أرفع منصبا — حتى يئول إليه شرف الانتصار ! .



الأميرال سيمور « تعجل الضرب .. ليكون له شرف الانتصار »

كانت الأسباب التى انتحلها سيمور كما جاء فى برقيته المرسلة إلى حكومته :

« هى مشاهدة أحد الحصون تجرى فيه بعض الترميمات . . . ومن أن هناك نية لردم البوغاز حتى يسد مدخل الميناء ... »

.. فوصل الرد من الأميرالية البريطانية ونصه :

« أوقف العمل فورا فى التحصينات — فإذا لم يوقف : حطم الطوابى وأسكت البطاريات ! »

.. أوفد عرابى قائد البحرية المصرية إلى رياسة الأسطول يكذب هذا الادعاء ، ويثبت حسن نية الجانب المصرى ، وعدم وجود أية نية عدائية وشهد بذلك الأميرال « كونراد » قائد الأسطول الفرنسى بمياه الإسكندرية الذى أبلغ حكومته الأمر ، فقررت على لسان وزير خارجيتها : « إن تصرف الأميرال الإنجليزى بهذه الصورة يعد عملا عدائيا هجوميا ضد مصر وإن البرلمان الفرنسى يعارض خرق مبدأ حرية الشعوب ، وإنه بناء على ذلك صدر الأمر إلى الأسطول الفرنسى بالانسحاب من المياه المصرية ، إذا ما كان هناك تصميم على إطلاق المدافع » .

.. وانسحب الأسطول الفرنسى من المياه المصرية — وبذلك خلا الجو للأسطول البريطانى وانطلقت يد الأميرال سيمور فى العمل ... وكان ذلك أقصى ما تتمناه السياسة البريطانية فى ذلك الوقت .

وفى يوم ٧ من يوليو أرسل « سيمور » إنذاراً آخر بإنزال المدافع من فوق الطوابى إذ وصل إلى علمه — على حد قوله : « أن هناك مدفعين على وشك التركيب على شاطىء البحر » .. ! نأكد له اللواء طلبة عصمت (باشا) قائد حامية الإسكندرية أن هذه الأخبار عارية من الصحة ..

.. فما الذى فعله (سيمور) إزاء كل هذه النيات الحسنة والتوكيدات القاطعة من جانب المصريين .. ؟

أرسل يستأذن الحكومة البريطانية فى ضرب مدينة الإسكندرية عند شروق الشمس فى الحادى عشر من شهر يوليو ... وأنه سيشرع فى الضرب بعد ٢٤ ساعة من تسليم الإنذار إلى الحصون القائمة على البوغاز

إن لم تسلم أسلحتها ، على أن تقوم القوات المصرية بإخلاء مواقعها ! . . .
كما عرض الأميرال ضيافة الخديو توفيق على ظهر سفينة حربية إنجليزية حتى لا يتعرض للخطر !

. . ولا شك أن الغرض من هذا كان محاولة إسباغ (الشرعية) على هذا العمل العدوانى بالحجج المفتعلة التى يتذرع بها المستعمر على الدوام . .

واعتذر توفيق فى بادئ الأمر . . إلا أنه — مما يؤسف له — عاد وقبل التعاون مع أعداء البلاد .

وبمجرد وصول الإنذار عقد اجتماع حضره كبراء البلاد وقادتها وشهده الخديو . .

وكان رأى البعض التسليم بلا قيد ولا شرط . . وما لبثوا آخر الأمر أن اتخذوا القرار التالى — وكان آية فى الحكمة والوطنية — رداً على الإنذار البريطانى :

(لم تفعل مصر شيئاً يقتضى إرسال هذه الأساطيل المتجمعة . . ولم تقم السلطة المدنية أو العسكرية المصرية بأى عمل يسوغ مطالب الأميرال سوى أنها قامت ببعض الترميمات الاضطرارية فى أبنية قديمة .

. . ونحن هنا فى بيتنا ووطننا !

— ومصر الحريصة على حقوقها وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم أى مدفع أو أية طابية دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح !

. . فهى لذلك تحتج على بلاغكم ، وتحملكم مسئولية هجوم الأساطيل ، وإطلاق المدافع على بلد آمن ينعم بالسلام .

وأيضا تقرر مصر من قبول باب المسالة قبول إنزال ثلاثة مدافع يختارها الأميرال ، ولن تجاوب الدفعية المصرية على مدافع الأسطول إلا بعد إطلاق الطلقة العاشرة . .)

وهنا ينتهى البيان .

غير أن (سيمور) لم يبال حرية الشعوب ، وبدأ الضرب فى السابعة من صباح يوم ١١ يوليو .

مواقع الحصون من موقف الأسطول :

إن حصون الاسكندرية القائمة على طول شاطىء البحر تنقسم ثلاث مناطق بالنسبة لتعرضها لضرب الأسطول :

١ — المنطقة الأولى ، وهى شرقى المدينة . وليس بها غير حصن السلسلة وهذا الحصن لا نعده قد اشترك فى القتال .

٢ — المنطقة الثانية ، وهى التى شمالى المدينة وهى عبارة عن حصون قايتباى والهلالية والأطة ، والاسبتالية ، ورأس التين ، والفنار .

٣ — المنطقة الثالثة ، وهى التى غربى المدينة وكان بها حصون صالح أغا ، والبرج رقم ١٥ ، وأم قتيبة ، والعجمى ، والمرابط .

أما الاسطول البريطانى فكان مؤلفا من ثمانى مدرعات كبيرة ، وخمس سفن صغيرة غير مدرعة .

وقد كانت المدرعات تنقسم قسمين :

الاسطول الخارجى :

وكان مؤلفا من المدرعات الخمس : ألكسندرا ، وانلكسبيل ، وسلطان ، وسوبرت ، وتمرير . ومهمته تنحصر فى الوقوف خارج الميناء فى عرض البحر ومهاجمة حصون المنطقة الثانية .

والأسطول الداخلى :

وكان يتكون من ثلاث مدرعات : انفسيبل ، ومونارك ، وبنلوب بقيادة (سيمور) ومهمته أن يقف فى الجزء المتقدم للميناء ويهاجم حصون المنطقة الثالثة .

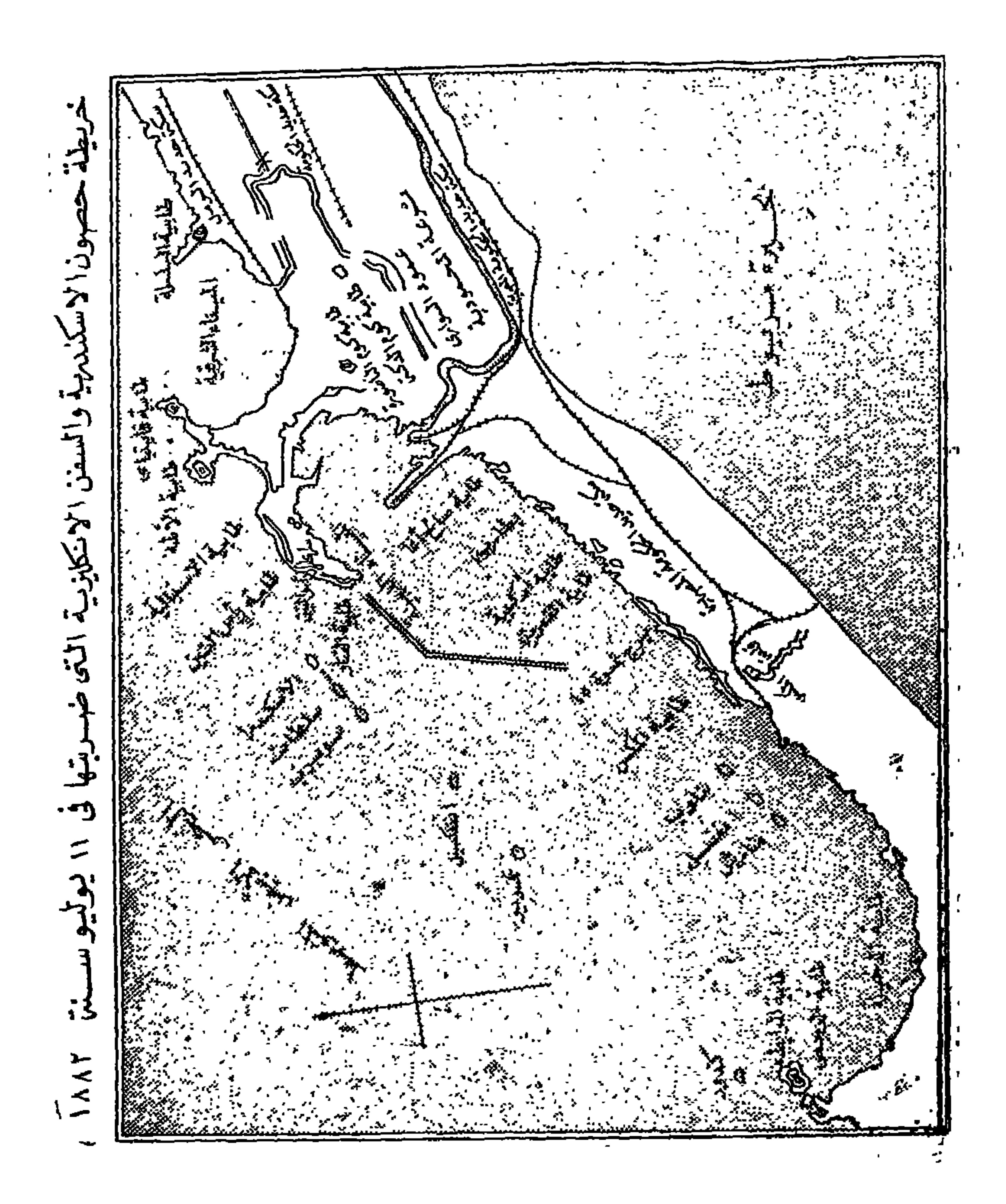
وأما السفن الخمس الصغيرة فكان عليها أن تقف خارج منطقة الضرب وتشترك فى مهاجمة حصون المنطقة الثالثة عندما تحين الفرصة نظراً لقصر عمق غاطسها .

. . ونظرة واحدة إلى موقف الأسطول بالنسبة للطوابى كما هو موضح فى الخريطة وخصوصا الداخلى نستنتج ما يأتى :

١ — إن المخاوف التى ادعاها الاميرال من خطر الطوابى على الاسطول كانت مخاوف مختلقة أراد بها تسويغ فعلته .

٢ — إن سيمور لم يحس أية خطورة من هذه الطوابى . . ولذلك دنا منها هذا الدنو الكبير لثقته بضعف تأثير مقذوفاتها .

وقد كانت النسبة بين قوة الحصون وقوة الأسطول : ١ : ٦ يضاف إلى ذلك أن المدافع المصرية كانت قصيرة المرمى ، وكان الجنود الإنجليز ثلاثة أضعاف الجنود المصريين ، إذ كانت حامية الإسكندرية عند ضربها مكونة من ٤ أورط مشاة هى : ٢ جى و ٤ جى و ٥ جى و ٦ جى ومجموع



خريطة حصون الإسكندرية والسفن الإنكليزية التي ضربتها في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢

عساكرها ٧٤٦٣ من المشاة ومن آلاى من طوبجية السواحل قوامه ١٧٦٢ جنديا ومن أورطتين سوارى من الآلاى الأول عدد عساكرها ٢٦٢ جنديا بحيث لم يتجاوز المجموع الكلى ٩٤٨٧ جنديا وضابطا .

وقد بلغت خسائر الانجليز فى هذا اليوم ٦ قتلى و٢٧ جريحاً ، أما قتلى المصريين وجرحاهم فقد تعذر معرفة عددهم بالضبط ، وإن كان قد زاد عن ذلك بكثير وقد قدرهم « ستون باشا » بنحو ٧٠٠ فرد .

ومما يذكر أن الذخيرة التى استهلكها الأسطول البريطانى كانت جسيمة للغاية إلى درجة استنفدت فيها المدرعات الكبيرة فى نهاية اليوم كل ما كان بها من ذخيرة..

بسالة جنود المدينة :

ولقد أبلى الجنود المصريون بلاء حسناً ، وظلوا يقاومون بكل أمانة وشرف فلا تراجع ولا انسحاب ، وكان بلاء المدفعية مشرفا للغاية ولم يتركوا مدافعهم لحظة وكانت الحصون تدك عليهم دكا . .

وفى ذلك، يقول « البارون دكيوزل » وكيل مصلحة الجمارك الذى كان على السفينة تيخور أمام الإسكندرية فى كتابه : ذكريات رجل إنجليزى عن مصر صفحة ٢٠٠ ما نصه :

« لقد ثبت جنود المدفعية المصرية فى مواقعهم أمام نيران الأسطول الهائلة الفتاكة ثباتاً دل على بسالتهم وبطولتهم النادرة .

ولم ينقض الضرب إلا فى منتصف الساعة العاشرة صباحا من يوم

١٢ من يوليو ؛ لأن المصريين إذا كان لديهم مدفع فى موقع لم يكن قد سقط بعد ، ظلوا يستعملونه إلى أن يكره هذا المدفع على السكوت إكراها .

وقال كذلك المسيو سكوتيدس وكيل قنصل اليونان بالإسكندرية فى كتابه « مصر المعاصرة وعرابى (باشا) » صفحة ١٦٨ :

وكانت قذائف المدافع المصرية تسقط فى البحر وهى فى منتصف الطريق والبعض الآخر يصطدم بمدرعات الإنجليز الضخمة فيرتد عنها كأنها جسم من المطاط ثم يغوص فى الماء .

ومع هذا فليس ثمة إلا الإعجاب بما أبداه جنود المدفعية المصرية من البطولة والبسالة والثبات .

أما الأهالى المصريون فقد وقفوا موقف الكرامة والبطولة فبذلوا غاية ما فى طوقهم من علاج الجرحى ومنع الجنود من الاستيلاء على المدينة وإظهار السخط والكراهية للمحتلين .

ولطالما ألقى فى روع الناس كتاب التاريخ من تلاميذ « دنلوب » الاستعمارى — ولا داعى لتحديد الأسماء — بأن الأهالى لم يجاهدوا حين اعتدى على مدينتهم مع أن المصريين جنوداً وأهالى أظهروا شجاعة نادرة فى هذا اليوم العصيب . أشاد بذلك جون نينيه السويسرى فى كتابه « أحمد عرابى » .

حريق الإسكندرية :

وقد أشيع ، لغطا وكذبا ، أن بعض من غرر بهم أرباب السوابق انتهزوا

فرصة تراجع الجنود المصريين عن المدينة لنهب متاجرها . . كما قيل كذلك : إن الأميرالاى (سليمان سامى) قائد إحدى الفرق قد أمر جنوده بإحراق المدينة قبل مغادرتها . . ويقال — وهذا أمر محتمل أيضا — إن مقذوفات الأسطول الشديدة كانت سببا فى الحريق .

وقد حاول عرابى ومن معه القبض على ناصية الحال فلم يفلحوا ، فقصد هو وأركان حربه إلى جهة كفر الدوار حيث وقع عليها الاختيار لإقامة الموقع الدفاعى عن داخل البلاد .

اللص وصاحب الدار :

سكتت الطوابى . . وتوقف الضرب ، وترتب على ذلك ما ترتب من احتلال وما جره الاحتلال وراءه من النتائج الخطيرة مما هو معروف .

وهنا ترتفع بعض الأصوات التى لا تسمع إلا فى مثل هذه الأوقات ، بأنه كان على عرابى أن يأخذ الموقف بالحكمة ، فقد قيل يومئذ — ولا يزال يقال مع الأسف حتى اليوم — إن معارضة عرابى فى تسليم القلاع هى التى جرت إلى الاحتلال !

فأى منطق هذا ؟ أليس تسليم القلاع بلا مقاومة هو إتاحة الفرصة للاحتلال . . ؟ أفيكون معنى الاستقلال أن نقبل الاحتلال دون مقاومة . .

انحياز الخديو إلى الأعداء

ضربت الاسكندرية ، واستبيحت عروس البحر ، وتربص الانجليز في انتظار الأمداد ، يعدون العدة للزحف ، وكل من له أدنى خبرة بالانجليز في حروبهم في ماضيهم أو حاضرهم ، يعلم أنهم يملكون البلاد بأيدى أبنائها ويقتلون الشعوب بسيوف أمرائها . . ولقد أتاح لهم نزول الخديو بسراى رأس التين في حماية الأسطول — الفرصة ليستعينوا بنفوذه الشرعي في تحقيق مآربهم الاستعمارية .



ضرب الاسكندرية
قنابل الأسطول « بداية الاحتلال »

فتلقاه سيمور بفرح كبير أبرق على أثره لحكومته :

« لقد احتللت رأس التين ، ولا تزال الاسكندرية تحترق . والخديو سالم في قصره يحرسه ٧٠٠ من البحارة » .

ولعل هذا التحول من جانب الخديو كان من أخطر الحوادث فى هذه الثورة ، إذ شجع نزول العساكر الانجليزية إلى المدينة توطئة لاحتلال البلاد بعد ضرب القلاع .

لم ترتض مصر التسليم طائعة مختارة ، ففى هذا قضاء على حريتها وكرامتها وكيانها . . واختارت الحرب لتحافظ على شرفها فى حين أخذ الخديو على عاتقه تقديم الوطن لقمة سائغة للمحتل ، فأذاع « سيمور » فى ١٧ من يوليو سنة ١٨٨٢ منشوراً وزع فى شوارع المدينة ، و هو أول منشور يعلن فيه الانجليز أنهم مكلفون من جانب الخديو ردع العصاة ، والمحافظة على النظام ! .

وشايع راغب (باشا) رئيس الوزراء سيده وكان يؤيد مقاومة التدخل البريطانى حتى ضرب الاسكندرية ، ولم يخجل أن يستكتبه سيمور خطابا فى اليوم نفسه يرفعه إليه جاء فيه :

« لى الشرف الرفيع أن أعلن لحضرتكم أن (عرابى) يشتغل الآن بإعداد وسائل الدفاع ، وذلك مخالفة لأوامر جناب الخديو ، فكونوا إذن على علم بأن الخديو عزم على عزله ، فهو لذلك المسئول عما يحدث . فأرجوكم أن تبلغوا مضمون هذه الرسالة إلى حكومة جلالة الملكة » .

ثم تعدو المؤامرة سريعا نحو غايتها المرسومة ، فيدعو توفيق (أحمد عرابى) للحضور إلى الإسكندرية محملا إياه تبعة ضرب الاسكندرية أمام حسن مقاصد الانجليز !

واعتذر عرابى بأن البلاد فى حالة حرب مع الانجليز بناء على قرار

مجلس الوزراء الذى عقد برياسة الخديو ، والذى بمقتضاه تقرر رفض الإنذار الانجليزى الذى وجهه سيمور فى ١٠ من يوليو حتى لو أدى ذلك إلى القتال ثم أضاف عرابى :

إنه لا يليق له أن يكون فى بقعة فى يد العدو — وأنه من الأولى إيفاد الوزراء أو رئيسهم إلى كفر الدوار للتشاور فى الموقف » .

الجلس العرفى :

انكشف المستور ، وظهرت مشايعة الخديو للانجليز ، وفطن عرابى إلى أن (توفيقا) سوف يصدر قرارات تشل الحركة القائمة على قدم وساق لمقاومة العدو ، فبادر عرابى بإصدار الأوامر المشددة إلى المديرين والمحافظين يحذرهم فيها اتباع أوامر الخديو الذى مالأ الانجليز ، وأن عليهم أن يتخذوا الأهبة ويستعدوا للقتال .

وفى الوقت نفسه أرسل إلى يعقوب سامى (باشا) وكيل وزارة الحربية ليقوم بدعوة العلماء والأعيان للتشاور فى الموقف وإصدار ما يجب عمله لمصلحة الأمة .

وفى مساء يوم ١٧ من يوليو عقد بديوان وزارة الداخلية مجلس من وكلاء الوزارات وكبار الضباط والموظفين ، وقرر المجلس المذكور الذى سمى « بالمجلس العرفى » والذى ظل فترة الحرب يتولى زمام السلطة نيابة عن الأمة ، دعوة قادة الرأى فى البلاد والأعيان والعلماء فى شكل جمعية عمومية سرعان ما انعقدت بعد ساعات قليلة ، وشهدها الشيخ الإنبابى شيخ الإسلام وقاضى القضاة ، ومفتى الديار والنواب والتجار ... واتخذت

الجمعية قراراً خطيراً مؤداه إعداد الأمة للجهاد ، واستدعاء الوزراء إلى القاهرة .

وعندما بلغ خبر هذا مسامع توفيق أصدر مرسوما فى ٢٠ من يوليو بعزل عرابى من وزارة الحربية وتعيين عمر لطفى (باشا) محافظ الاسكندرية بدلا عنه ، وأردف ذلك بمنشور علق فى شوارع الإسكندرية يسوغ فيه احتلال الانجليز للمدينة بحجة المحافظة على الأمن بعد أن أخلى عرابى الاسكندرية دون مقاومة !

ويفهم من منشور الخديو أنه كان يريد أن يقنع المصريين بأنه كان راغباً فى المقاومة وعدم ترك المدينة بدون دفاع . . ولندع (عرابى) يرد على ذلك بنفسه ؛ فقد جاء فى تقريره الذى كتبه إلى محاميه المستر برودلى وهو فى السجن :

« أصدر الخديو أمره فى مجلس الوزراء إلى جنودنا ليحتلوا قلعة العجمى ويمنعوا نزول الجنود البريطانية — فأفهمت سموه أن المشاة لا يستطيعون هذا لأنهم يتعرضون بذلك لنيران مدفعية السفن كثيراً ويكونون عرضة كذلك لأن يقطع عليهم الطريق إلى الإسكندرية » . . فظهر على الخديو الغضب . . وقال :

لماذا تسمون أنفسكم جنوداً إذا كنتم لا تستطيعون أن تمنعوا عدواً من أن ينزل جنوده ببلادنا ! »

ويمضى الخديو بعد ذلك متعاوناً مع الانجليز . . أرسل يطلب القنصل الانجليزى حاثاً إياه أن يستحث حكومته لتخطو خطوة جديدة بلا إبطاء قائلا له :

« إذا تباطأت انجلترا فى إرسال القوة التى تحتاج البلاد إليها ، فستكون عاقبة الأمر وخيمة إذ أن الشعور الوطنى قد بلغ حداً كبيرا .

لذلك انسحبت حامية الاسكندرية لتتخذ مكاناً حصينا يصلح لإقامة خطوط الدفاع عن داخلية البلاد ، وقد اتخذت جهة كفر الدوار مركزاً لهذا الدفاع .

ولم يحفل الشعب بأمر توفيق القاضى بعزل عرابى ، بل انعقدت الجمعية العمومية ثانية فى ٢٣ من يوليو فى نحو خمسمائة عضو على هيئة مؤتمر وطنى يتقدمهم الرؤساء الروحانيون (شيخ الإسلام وبطريرك الأقباط وحاخام اليهود) وأعيان البلاد وكبراؤها ، وتولى عرض الموقف الإمام الشيخ محمد عبده الذى اختتمه بفتوى العلماء الثلاثة : « العدوى وعليش والحلفاوى » تنص على أن الخديو بانحيازه إلى المغتصب يعد مارقاً عن الدين ، وعلى عدم قبول عزل عرابى ، وإيقاف العمل بأوامر الخديو .

وهنا بدأت الحرب .

الحرب العرابية

القيـــادة

عين عرابى اللواء (محمود فهمى) رئيساً لهيئة أركان حرب الجيش المصرى بعد ضرب الإسكندرية . . وكان من أكفى رجال الهندسة العسكرية حيث اكتسب خبرة عملية ، فقد سبق له الاشتراك فى حرب البلقان بين روسيا وتركيا سنة ١٨٧٦ . . ووضع خطة سديدة للدفاع عن البلاد كفيلة بصد الأنجليز وإنقاذ مصر من هذه الحملة لو اتبعت بإحكام .



اللواء محمود فهمى
« خطة محكمة للدفاع عن البلاد »

مجمل الخطة :

اختار محمود فهمى خمسة مواقع رئيسية لتكون مراكز للدفاع عن البلاد :

الأول فى كفر الدوار .

والثانى فى رشيد .

والثالث بين رشيد وبحيرة البرلس .

والرابع فى دمياط .

والخامس فى الصالحية والتل الكبير . . وذلك لصد الهجوم من ناحية الشرق ومن جهة قناة السويس ، وقد أشار بسد ترعة الإسماعيلية بمجرد بدء الحرب لمنع وصول المياه العذبة إلى الموانى الثلاثة (بور سعيد ، الاسماعيلية ، السويس) كما قرر ردم قناة السويس ذاتها لمنع العدو من اتخاذها قاعدة عسكرية .

مزايا الخطة :

لو أخذ بهذه الخطة لتحقق ما يأتى :

١ — إنها كانت تحول دون وصول قوات بريطانية من الهند لتتصل بالقوات التى جلبت عن طريق البحر الأبيض .

٢ — كان من شأنها أن تحول دون وصول القوات إلى الإسماعيلية بسهولة عن طريق القناة .

٣ — كان من شأنها كذلك أن يضطر العدو إلى عبور الصحراء الشرقية أو مهاجمة مصر عن طريق الدلتا . وكلا الأمرين يعتبر مغامرة للمهاجم نظراً لخلو الصحراء من قواعد التموين وموارد المياه ، كما أن الترع والجسور كانت ستعطل زحف القوات ولا سيما أن فترة الزحف كانت فى أغسطس وسبتمبر وهما موسم الفيضان فى مصر .

وهنا ينبغى أن نسجل تردد عرابى الذى خشى عواقب ردم القناة

مع أن رياسة أركان حربه تمسكت بهذه الخطة ظناً منه أن الانجليز لن يجسروا على اختراق « حيدة القناة » وكلنا نعرف كيف سارع العدو إلى خرق حياد القناة . .

وبهذا لم يتمكن من الدفاع عن الجبهة الشرقية إلا بالقوة التي كانت تعسكر في التل الكبير على بعد ١١٠ كيلو مترات من القاهرة ولعل هذا الخطأ من جانب عرابي هو العامل الرئيسي في انهيار خطة الدفاع .

القوات :

كانت القوات المصرية حوالى ١٩,٠٠٠ من الجنود النظاميين ، وبضعة آلاف أخرى من جموع العربان والجنود غير النظاميين والخفراء الذين كان ضررهم أكثر من نفعهم لعدم تدريبهم على أساليب القتال .

ووزعت هذه القوات على النحو الآتي :

٨,٠٠٠ في كفر الدوار بقيادة اللواء طلبة عصمت .

٣,٥٠٠ في (أبو قير) بقيادة اللواء خورشيد طاهر .

٢,٥٠٠ في رشيد بقيادة اللواء على الروبي.

٥,٠٠٠ في دمياط بقيادة اللواء عبد العال حلمي .

٦,٠٠٠ في الجبهة الشرقية بقيادة الفريق راشد حسني .

وكانت تتبعه حامية الصالحية بقيادة اللواء سامي البارودي .

خطة الانجليز :

فى ٢١ من يوليو ٨٨٢ صدر الأمر بتعيين الجنرال السير جارنت ولسلى قائداً عاماً للحملة الانجليزية على مصر . . ولم يصل مصر إلا فى منتصف أغسطس وظل يتولى قيادة القوات الانجليزية فى مصر بعد ضربها فى ١١ من يوليو الجنرال « اليزون » تعاونه قوة الأسطول بقيادة سيمور حتى وصول الجنرال ولسلى .

مجمل الخطة :

كانت الخطة الأساسية للحملة الانجليزية هى غزو مصر من الشرق . وكان ذلك يقتضى اقتحام قناة السويس واتخاذ الاسماعيلية قاعدة للزحف على القاهرة .. على أن يقوم جزء من قوات العدو بشغل « قوات منطقة كفر الدوار » إخفاء لاتجاه الهجوم البريطانى

التزم الانجليز خطة الدفاع بعدضرب الاسكندرية حتى تصلهم الامدادات من الخارج ، فأخذوا فى تحصين مدينة الاسكندرية بقيادة الجنرال اليزون الذى بلغت قواته حوالى ٤٫٠٠٠ جندى عدا قوات الأسطول التى كانت حوالى ١٣٫٠٠٠ وعلى الرغم من أن الانجليز كانوا يلتزمون خطة الدفاع فى الميدان الغربى (ما بين كفر الدوار والاسكندرية) قبل وصول قواتهم الرئيسية بقيادة ولسلى فإنهم بكروا فى خرق حرمة قناة السويس منذ ذلك الوقت على عكس ما كان يظن عرابى بل اتخذوها ميداناً لتحركاتهم العدوانية.

القوات :

بلغ عدد الجيش الانجليزى عندما اكتمل وصول الإمدادات التى

وردت إلى الإسكندرية والسويس ما يقدر بثلاثين ألف مقاتل كانت عبارة عما يأتى :

١٤٫٠٠٠ من المشاة

٣٫٠٠٠ من الفرسان

١٫٠٠٠ من المدفعية

٥٦٠ من المهندسين

والباقى لأعمال الهندسة والسكك الحديدية والإشارة

المیـدان الغربى :

المقصود بالميدان الغربى ما بين الإسكندرية وكفر الدوار .. وبالميدان الشرقى ما بين الاسماعيلية والتل الكبير .

ولقد وجه عرابى معظم عنايته إلى الميدان الأول وجمع فيه أهم قواته وأهمل الميدان الشرقى فكان ذلك السبب الأكبر فى الهزيمة .

منطقة الدفاع :

وكانت خطوط الدفاع عن هذا الميدان عبارة عن ثلاثة خطوط يبعد كل منها عن الذى يليه أربعة أو خمسة كيلو مترات .

وكان بين كل خطين خندق عمقه ١٥ قدماً ، وبنيت على المرتفعات الصالحة للملاحظة مواقع المدافع التى بلغت خمسين مدفعاً .

وأسندت قيادة القوات وعددها ٨٫٠٠٠ جندى وضابط لطلبة عصمت تحت امرة عرابى .

وقد قام ببناء الاستحكامات نحو خمسة آلاف من المتطوعين من مديريات البحيرة والغربية والمنوفية .

وجعل عرابى مركز قيادته عند كنج عثمان .

موقعة الرمل :

أول ماقامت به حامية كفر الدوار سد ترعة المحمودية لمنع المياه العذبة عن الإسكندرية ، فانزعج الإنجليز وهاجر الأوروبيون من الميناء ، وتعذر على قواتهم الحصـــول على الماء . . فزحفوا بثلاثة آلاف جندى بقيادة الكولونيل « سبتان » فى أغسطس سنة ١٨٨٢ يريدون التقدم من جهة الرمل .. فحمل المصريون عليهم بكتيبتين من المشاة ، وكتيبتين من الفرسان تحت قيادة البكباشيين أحمد البيار ومصطفى عثمان ، ثم حاصروهم من جهه (أبو قير) بثلاثة بلوكات من الفرسان بقيادة اللواء خورشيد طاهر قائد خط (أبو قير) ، وهجم المصريون عليهم هجوماً شديداً اضطرهم إلى الإدبار ، وتعرف هذه الواقعة بوقعة الرمل حيث كان هجوم الإنجليز عن طريق هذه الضاحية .

موقعة غرب خورشـــيد :

وفى ١٧ من أغسطس قام الإنجليز بهجوم ذى ثلاث شعب على مقدمة الجيش المصرى : تقدم الجناح الأيمن بطريق السكة الحديدية من القبارى ، والثانى من طريق كوبرى المحمودية ، والجناح الأيسر من طريق الرمل ، وتقابل الجيشان وتقاتلا بالسلاح الأبيض ست ساعات ،

جرح خلالها قائد القوة البكباشى محروس الذى دافع دفاعاً مجيداً عن قطاعه . .

وانجلت المعركة بارتداد الإنجليز إلى الإسكندرية تحت جنح الظلام بعد أن وقعت بهم خسائر تزيد على خسائر المصريين .

معركة كفر الدوار :

وصل الجنرال « ولسلى » ليتولى قيادة الحملة فى ١٥ من أغسطس ؟ وبوصوله استكملت الحملة الإنجليزية إمداداتها التى بلغت ثلاثين ألفاً . . وما إن وصل المدينة حتى أذاع الإعلان الآتى على الأهالى فى ١٩ من أغسطس :

« بأمر الحضرة الخديوية يعلن الجنرال قائد الجيوش الإنجليزية بأن مقاصد الدولة البريطانية ليست إلا تأييداً لسلطة الخديو ولردع العصاة والقضاء على الفتن ، ولا مطمع للانجليز فى غزو أو فتح » .

.. فماذا كانت النتيجة . . ؟

زاد تصميم الأمة على الجهاد وعزم الشعب على الثبات ، وهجم الإنجليز فى اليوم الذى صدر فيه هذا المنشور بقوات كبيرة نقلتها القطر المسلحة من جهة القبارى تساعدها قوات أخرى من جهة الرمل يربو عددها على القوة المصرية أضعافاً ، إلا أن المصريين تمكنوا من صدهم جميعاً بعد أن كبدوهم خسائر كبيرة .

ثم عاود الإنجليز الهجوم فى أيام ٢٠ ، ٢ ، ٢٢ من أغسطس على مواقع المصريين بكفر الدوار إلا أنهم تمكنوا من صد العدو فاضطر إلى الانسحاب إلى الإسكندرية .

وهكذا كانت وقائع الميدان الغربى سجلا مجيداً من سجلات الكفاح الذى اشترك فيه الجيش والشعب .. وأنفق الشعب على المعركة حيث كانت خزانة الدولة قد نهبت .. نهبها الانجليز غداة مهاجمة الأسطول .

وكان أشد مايواجه (عرابى) فى ذلك الوقت الحصول على المال — والمال عصب الحرب — إذ أخذ مستر كالفن المراقب المالى جميع الأموال من الخزانة المصرية ووضعها تحت تصرف الإنجليز فى الاسكندرية إثر هجوم الأسطول عليها .

ولكن التاريخ علمنا أنه إذا أجمع شعب على الكفاح فلن تقف فى سبيله العقبات بل وكان من مفاخر هذه الثورة إسهام الشعب بكل مايملك فى تمويل الجيش مما يضفى على هذه الثورة الصفة الشعبية ويندر أن نجد فى تاريخ الحروب حرباً كحرب الثورة العرابية . ينبذ فيها الشعب حكامه وينضم للثوار ثم يقوم الشعب بالانفاق على الحرب . . فالخزانة خاوية ، والتجارة متوقفة . فجمع الأهالى الأموال وسائر الأطعمة والامدادات للقوات المحاربة ؟ وتبرعوا بعشرة قروش عن كل فدان على أن يخصم ماتبرعوا به فى المستقبل من ضرائب الاطيان .

وفى ذلك يقول الإمام الشيخ محمد عبده :

هل يقدر أحد أن يشك فى كون جهادنا وطنيا صرفا .. بعد أن آزره رجال من جميع الأجناس والأديان . فقد تبرع الأمراء والأعيان والعلماء حتى النساء .

وقد ذهب الناس من فلاحين وعمال إلى الحرب راضين متشوقين لمقاتلة الإنجليز .

بقيت نقطة أخيرة عن الميدان الغربى نقف عندها قبل أن أنتقل الحديث عن الميدان الشرقى .

فما أكثر الكتاب والمؤرخين الذين يهونون من معارك كفر الدوار للتقليل من شأن انتصارات الجيش المصرى فى هذا الميدان والتهوين من شأن تعاون الشعب مع الجيش فى هذه المعارك .. ! هؤلاء عمدوا إلى قلب الحقائق حين ذكروا أن هذه الوقائع كانت من أجل المناوشة فقط والتضليل .

والأمر غير ذلك . فوقائع الميدان الغربى ولاسيما موقعة كفر الدوار كانت معركة ولم تكن مناوشة .. ولم يكن الغرض منها التضليل بل كان سبرا لغور الخطوط الدفاعية المصرية .

والقوات المناوشة التى تقصد التضليل تكون عادة فى معظم الأحيان قليلة لا تزيد على المئات ، ولكن معارك كفر الدوار كانت تشترك فيها القوات الانجليزية بالآلاف ، بل لقد زادت القوات الانجليزية التى اشتركت فى معركة كفر الدوار فى يوم ١٥ من أغسطس سنة ١٨٨٢ عن عدد القوات المصرية التى تقدر بثمانية آلاف مقاتل . والواقع أن الخطة الانجليزية لم تكن مبنية على التضليل فى الميدان الغربى ، بل كانت قائمة على فتح ميدانين وتزويد الميدان الغربى وخطوط كفر الدوار بقوات إنجليزية كبيرة يمكن بها فتح هذا الميدان إذا تمكنت القوات المصرية من صد القوات الانجليزية فى الجبهة الشرقية .

وإنه لما يؤسف له أن يذكر أن الخطة كانت للتضليل ، كأن المصريين

لم يكونوا يعلمون أهمية الميدان الشرقى .. بل الثابت والواقع كما ذكرنا فى مجمل الخطة أنها كانت أصلا موضوعة على أساس أن الميدان الشرقى هو الميدان الأول .. وكان قائد هذه الجبهة أرفع الضباط المصريين رتبة وأبسلهم فى القتال الفريق راشد حسنى ، وإن اللواء (محمود فهمى) رئيس أركان حرب الجيش وضع الخطة على أساس ردم ترعة الاسماعيلية لمنع المياه العذبة ، وردم القناة — إلا أن (عرابى) لم يأخذ بهذه الخطة لا لأنه كان يجهل أهمية الميدان الشرقى ، أو لأنه انخدع كما يذكر ذلك كثير من الكتاب ، بل لأنه أخطأ فى تقدير الموقف كما سوف نشرح فى صفحات تالية .

الميدان الشرقى:

التكتيك السياسى :

كانت خطة الحملة الانجليزية غزو مصر من الشرق والضغط على الحامية المصرية فى كفر الدوار ، وكان ذلك يقتضى اقتحام قناة السويس ، ولذلك وضع الانجليز خطة محكمة اتبعوا فيها تكتيكا سياسياً بارعا كان له الأثر الأكبر فى توجيه سير المعارك فلم يخل ميدان من توجيه نشاطهم ضد عرابى . .

فى العالم .. وفى الآستانة .. وفى مصر .

ففى الميدان الأول : تعللوا بحجة الخطر المحدق بالقناة..

وفى الميدان الثانى : أذاعوا منشور العصيان .

وفى مصر : أطلقوا خيول سان جورج .

.. ولكل اسم من هذه الأسماء قصة .

ما كاد الانجليز يفرغون من ضرب الاسكندرية بحجة رعاية الأجانب حتى أخذوا يخوفون الدول بما زعموا من الخطر المحدق بسلامة القناة .. وكانوا يريدون من هذه الإثارة أن يزعموا امام دول مؤتمر الآستانة أن الظرف القاهر الذى استلزم التدخل الحربى فى شئون مصر ، لم ينته بضرب الاسكندرية ، بل إنه ما زال قائماً .. ليتخذوا من هذا ذريعة لاقتحام القناة .

فأرسل جرانفيل وزير خارجية بريطانيا إلى سفراء انجلترا لدى الدول المشتركة فى مؤتمر الآستانة ليخبر كل منهم الدولة التى يقيم فيها بما يخشى من خطر على القناة . ويسألها : ماذا ترى من علاج لهذه الحال التى قد تفضى إلى كارثة تحل بالتجارة الدولية .. ؟

وفى الوقت نفسه أظهرت فرنسا من التردد حيال القناة مثل ما أظهرت حيال ضرب الاسكندرية .

ونفضت إيطاليا يدها من المسألة المصرية كلها ..

.. وهكذا انفردت إنجلترا فى موضوع القناة على نحو ما فعلت فى ضرب الاسكندرية من اختلاق العلل لخرق مبدأ حرية الشعوب .. فقد استباحت أيضاً تلك العلل فى خرق حرمة الممرات ذات الصبغة الدولية ، فقد زعمت أن هناك ترميمات تجرى فى طابية الجميل على مدخل بحيرة المنزلة غربى بورسعيد — تماما كما تعللت فى ضرب الاسكندرية — وكلفت سيمور قائد أسطولها احتلال بور سعيد والاسماعيلية .. ولم يمض يوم ٢٦

من يوليو إلاوقد اقتحمت السفينة الحربية «أوريون» ميناء بورسعيد وفى ٢٧ منه رست فى بحيرة التمساح على مسافة أقل من كيلو متر واحد من الاسماعيلية وتبعتها سفينتان أخريان ..

وفى ٢٩ منه وصلت إلى السويس على مقربة من مدخل القناة قافلة بحرية من أربع سفن حربية بقيادة الأميرال هوت .

وفى ٢ من أغسطس احتل الإنجليز السويس كما احتلوا ثكناتها التى أخلاها الجيش المصرى دون مقاومة . ولا ريب أن إخلاء السويس على هذه الصورة كان من أكبر العيوب فى هذا الميدان .

وعلى الرغم من هذا كله كان عرابى يردد استبعاده لخرق حرية قناة السويس بدعوى أن القناة إنما تبتدىء من بور توفيق على مسيرة ٣ كيلو مترات من السويس التى وقعت فى قبضة الأعداء .

بقى أن نقول : إنه — وإن كان من أكبر أخطاء عرابى عدم الموافقة على ردم القناة — فمن الواجب أن نوضح نقطا صورت مشوشة حتى استقرت فى الأذهان بفعل السنين بما دأب خصوم عرابى أن يشيعوه وأهمها :

١ — موقف دلسبس من عرابى .

٢ — موقف عرابى من ردم القناة .

عرابى لم ينخدع

ردد الكثيرون القول بأن دلسبس خدع (عرابى) وأن (عرابى) انخدع به . . والحقيقة أن دلسبس — بطبيعة الحال — كان يعارض موقف إنجلترا من انتهاك حرمة القناة ، لاتأييدا لمصر ولا للثورة العرابية ، إنما —

على الأقل — للمحافظة على مشروعه إذ كان يخشى أن تؤدى سياسة الانجليز إلى سدها أو تحطيمها بأيدى الوطنيين .

١ — ففى ١٩ من يوليو أى قبل أن يقتحم الأسطول القناة ذكر « كارتريت » فيما أبرق إلى جرانفيل بقوله : « أتشرف بإخباركم بوصول المسيو دلسبس إلى الإسكندرية وأن مجيئه إلى مصر فى هذا الوقت يعد من سوء الحظ » .

٢ — وفى ٣٠ من يوليو أبرق جرانفيل إلى سفير إنجلترا بباريس يقول :

« بالنسبة لمسلك المسيو دلسبس فيما يتصل بحماية القناة ، أرغب أن تبسط للمسيو دى فرسنيه أن حكومة جلالة الملكة ترى من المسلم به أن المسيو دلسبس لم يعط سلطة ليتكلم أو يعمل باسم الحكومة الفرنسية » .

٣ — كما أن دلسبس كان يبغى من هذه المعارضة حمل حكومته على التدخل لحماية مشروعه . . وفى ذلك يقول « جون نينيه » السويسرى فى كتابه أحمد عرابى :

« ولم يكن دلسبس كاذبا . . ولكن السياسة عرضته للكذب » .

« إحجام عرابى عن ردم القناة خطأ لا جهل » .

يجمل بنا أولا أن نلقى الضوء على ما كان يحيط بعرابى من ظروف تقبل أن نحكم على موقفه .

فأولا : كانت انجلترا تصور العرابيين بأنهم « عصاة » فكيف تكون

الحال لوردم عرابى القناة ، ومؤتمر الدول الذى يبحث الموقف فى مصر منعقد بالآستانة ؟

والرأى العام العالمى يترقب ليسجل ؟

وانجلترا تقوم بتلك الحملة المصطنعة بدعوى « الخطر المحدق بالقناة » مع أنه لم يكن قد حدث شىء على الإطلاق . . . . !

وثانيا : كان عرابى يخشى لو ردم القناة أن يصبح العالم كله عدو ثورته ، فهل كانت تحجم بريطانيا على أن تصفه بالطاغية الذى يردم القناة .. ويعطل التجارة العالمية .

وقد يقال — وهذا حق — إن الرأى العالمى إن هو إلا خرافة . . . فماذا صنع المؤتمر ؟ وماذا صنع العالم عندما ضربت إنجلترا ميناء الاسكندرية ؟

ولعل أدق من صور موقف عرابى فى هذه المسألة « الشيخ محمد عبده » حيث يقول فى مذكراته :

« عرابى اعتمد على دلسبس فى حماية القناة ، وكان يظن أن مس القنال يهيج عليه جميع الأمم ، لهذا ترك هذه الناحية عوراء »

ومن هنا نرى أن (عرابى) قد خانه التوفيق فى تقدير الموقف ، فارتكب خطأين ساعدا على عدم إحباط خطة الانجليز :

الأول : عدم تحصين المنفذ الشرقى إلى مصر التحصين الكافى ، حيث صرف الجانب الأكبر من عنايته إلى الميدان الغربى .

الآخر : اطمئنان عرابى إلى حيدة قناة السويس ، وحرصه على إرضاء

الدول بالمحافظة عليها ، فلم يقم بردم القناة مع أن أركان حربه اللواء محمود فهمى رئيس أركان حرب الجيش المصرى أشار بردمها .

ولعل السبب الأول مبنى على الأخير وهو استبعاد عرابى خرق حرمة هذه المنطقة الدولية .

ولكن الانجليز وضعوا نصب أعينهم « سياسة الأمر الواقع » ، ولم يأبهوا — كما أبه عرابى — بتلك الكلمة البراقة «الشرف السياسى!»

خديعة السلطان !

والميدان (الثانى) الذى حارب فيه الانجليز (عرابى) كان فى الآستانة حيث الخليفة السلطان الذى كان المصريون يرون فى عرابى مدافعاً عنه ضد انجلترا المعتدية . . وأخذت انجلترا من جانبها تضغط على السلطان ليعلن «عصيان عرابى» مستغلة اهتمام السلطان الشديد بالاشتراك مع انجلترا فى الحملة على مصر . .

وهكذا كان موقف تركيا منطويا على الخطأ والتردد منذ شبت الثورة، فهى تتحدث مع الخديو بوجه . . وتحدث (عرابى) بوجه آخر لتكسب من وراء هذا المسلك الملتوى نفوذاً وسلطانا ، نخسرت كل ما كانت تملكه من نفوذ وسلطان !

فبينما الجيش الإنجليزى يتقدم داخل البلاد ، كان الأمل يتضاءل فى استطاعة تجهيز حملة تركية تشترك مع الحملة الانجليزية فى إخماد الثورة ، بما كان يشترطه الداهية اللورد.« دوفرين » سفير انجلترا لدى الباب العالى

من شروط لمجيء هذه الحملة ، واثقا من عدم موافقة تركيا عليها ، كي يطيل أمد المفاوضات ويكون جيش بلاده قد تمكن من القضاء على الثورة وحده .. ومن ثم لا يكون هناك داع لحضور حملة أخرى .

أما الشروط فهي أربعة :

١ — ألا يتجاوز الجيش العثماني ستة آلاف جندي .

٢ — لايدخل هذا الجيش مصر عن طريق البر أو ينزل الاسكندرية ..

٣ -- عرض خططه الحربية على القيادة الانجليزية .

٤ — يصير سحب هذا الجيش بمجرد جلاء الجيش الانجليزي عن مصر .

فرفضت تركيا هذه الشروط ، ففاتت عليها الفرصة مع أنها لو بادرت بإرسال الحملة حتى بهذه الشروط لأدى ذلك لا محالة إلى جلاء الحملتين معاً فيما بعد . وكل السوابق التاريخية تثبت ذلك حتى في العصر الحاضر (جلاء القوات الروسية والأمريكية والانجليزية عن إيران بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . وجلاء القوات الانجليزية والفرنسية عن سورية وجلاء الجيشين العثماني والانجليزي نفسهما عن مصر أيضاً بعد جلاء الفرنسيين في عام ١٨٠١) .

هدد دوفرين بقطع المفاوضات ، واشترط أنه لايرتضي التوقيع على أي قرار إلا إذا وصله قرار عصيان عرابي باللغتين الانجليزية والفرنسية وعليه توقيع السلطان .

.. وفي ٢٧ من أغسطس وافقت تركيا على ماتراه انجلترا وأن قرار

عصيان عرابى يصدر عقب التوقيع على الاتفاق ؛ غير أن انجلترا اشترطت أن يعلن قرار العصيان فى الحال.. وحققت إنجلترا الهدف الذى كانت تبغيه

.. وما أن ظفرت بتوقيع السلطان . حتى تنصلت من وعدها بحجة أن القرار لم يصدر بالصيغة التى أرادتها ...

وهكذا كان مسلك السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين . خدع مصر لتخدعه بريطانيا .. فهو ينعم على عرابى بالوسام المجيدى الأكبر . ثم يطعنه طعنة نجلاء وهو يدافع عن حقوق السلطان ...

خيول سان جورج

أما فى مصر فقد اعتمد الانجليز على فرسانهم الذين دفعوا بهم إلى المعركة وفرسان هذا الميدان كانوا :

ـ علماء خانوا أمانة العلم .

ـ وأعرابا من البدو عملوا كجواسيس وتنكروا للوطن الذى يأويهم

ـ وضباطا خونة اغتالوا ضمائرهم ومدوا أيديهم ليطعنوا جيشهم وإخوانهم فى الدم والدين والجنس .

ـ وأعياناً دفع بهم الخديو فى ذيل الحملة الانجليزية ليكونوا كلاب حراسة للعدو ، وخدماً لأغراضه ورغباته .

وكان أبرز هؤلاء الفرسان :

إدوار بالمر :

كان أستاذاً للغات الشرقية فى جامعة كمبردج استدعته الأميرالية البريطانية لإجادته اللغة العربية ، وخبرته بأحوال المنطقة حيث كان عضواً فى جمعية كشف فلسطين ، وقد بدأ بالمر مهمته من يافا مرتديا الملابس العربية ، منتحلا شخصية تاجر إبل وتعاقد فى أثناء رحلته ـــ كما جاء فى مذكراته اليومية ـــ مع مشايخ الطياحة كما اتصل ببعض مشايخ الطرابيين . .

وقد توثقت صلته بالبدو حتى أطلقوا عليه « عبد الله أفندى » ، وكان يسمعهم الشعر العربى ، ويشاركهم فى غنائهم وغذائهم ، واشترك بالمر مع القوة التى إحتلت السويس فى الأول من أغسطس ، ثم انطلق إلى الصحراء يحطم (ومعه زمرة من البدو) أسلاك التلغراف ، ويحرق أعمدة التليفون ليقطع كل مواصلة بين عرابى وتركيا .. ولقى حتفه فى سيناء مع زميله الكابتن جل .

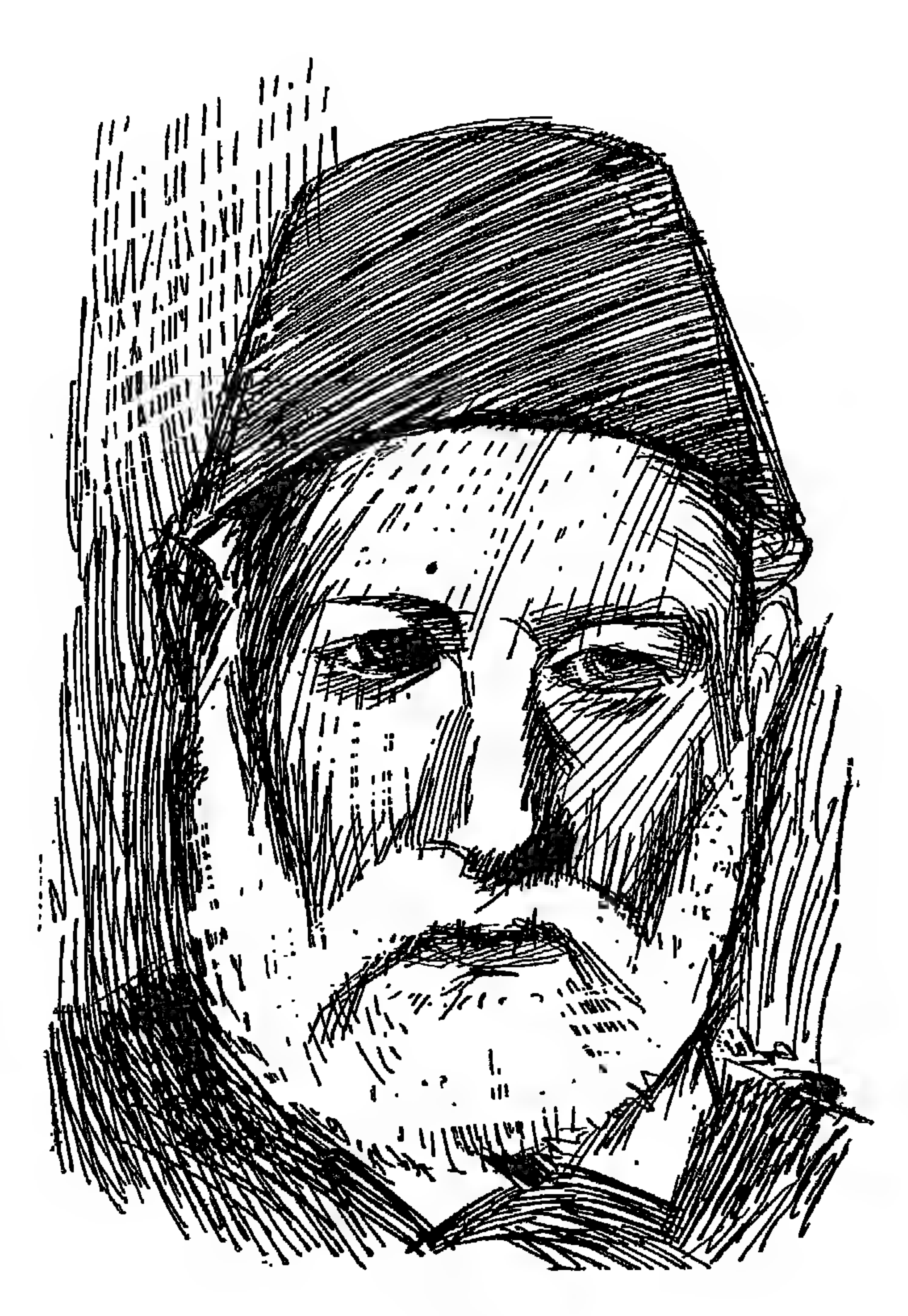
الكابتن جل :

لم يقل نشاط جل غربى القناة عن نشاط « بالمر » شرقيها فقد اتصل بأكبر مشايخ البدو فى هذه المنطقة — بناء على مشورة الخديو — الذى كتب اسميهما بنفسه كما جاء فى مذكرات جل الشخصية ، وهما سعود الطحاوى فى الصالحية — وقد كان من أكبر ثقاة عرابى ومحمد البقلى فى وادى الطميلات .

وقد اجتذب جل الكثير من قبائل البدو بما كان يغدقه عليهم من أموال طائلة .. وأخيراً التقى ببالمر ، وبدأا فى العمل معاً حيث أعطى جل زميله عشرين ألف جنيه ليوزعها على الأعراب الموالين ولكن حدث فى أثناء سيرهما أن صادفهما فى صحراء سيناء أفراد من قبيلتى الحوايات والحويطات ، فكشفوا أنهما يحملان مالا إلى الطياحة فأوثقوهما وسرقوا ما معهما من مال ، ثم قتلوهما رمياً بالرصاص فى وادى سدر .

سلطان (باشا) :

بز بالمر وجل الانجليزيين محمد سلطان (باشا) الذى كان — مع الأسف —



سلطان باشا
نائب الخديو المرافق للحملة الانجليزية

قبل الحملة الانجليزية رئيسا للحزب الوطنى قبل رياسة عرابى لهذا الحزب حتى كان يطلق عليه فى يوم ما « أبو المصريين » . . ثم أصبح بعد مجىء قوات الغزو نائباً للخديو توفيق المرافق للحملة الانجليزية .

قال الشيخ محمد عبده فى مذكراته : « مركز الدسائس والمخابرات كان فى الاسكندرية فى مكتب يسمى قسم المخابرات العسكرية اجتمع فيه كثير من الانجليز من موظفى الحكومة المصرية ومن المقيمين بمصر . . وكان روح الجميع « سلطان باشا » وقد عرف (سلطان باشا) سلطة النقود على الأرواح فأخذ فى التوزيع باسم الخديو والسلطان . واختار لبث الأفكار الطحاوى أحد ثقاة عرابى ! »

وكان ساعد (سلطان باشا) فى هذا المضمار « عثمان بك رفعت » ياور الخديو ، وكان ماهراً ذكيا أحدث تأثيراً كبيراً فى نفوس عدد كبير من الضباط وبخاصة الشراكسة ، (وعمر لطفى باشا) محافظ الاسكندرية .

أسماء . . وأسماء :

أما العسكريون ، فما يؤسف له أنهم كانوا ضباطا خانوا أمانة الشرف العسكرى ، والواجب الوطنى ، والكيان الخلقى ، فباعوا وطنهم ، وغدروا بجيشهم من أجل ذهب براق أعمى عيونهم وأمات ضمائرهم ، من أجل أحقاد شخصية أو بسبب الانقياد الأعمى للعدو دون تقدير .

وأشهرهم الأميرالاى على يوسف الشهير « بخنفس » .

والقائمقام عبد الرحمن حسن .

والأميرالاى أحمد عبد الغفار مع أنه كان فى وقت مامن غلاة الثائرين ، وأول الحاضرين من آلاى الفرسان فى ميدان عابدين فى مظاهرة ٩ من سبتمبر .

ولـكن الحقد . . والإغراء . . والضعف قد قامت بدورها وأظهرت المحنة معادن الرجال .. وحكم التاريخ حكمه على كل بما استحق .

وكان ذلك الدرس الخالد ، وبقيت مصر — فى جوهرها — وعلى حقيقتها أمة ترفض الضيم ، وتستنـكر المذلة وتأبى الهوان .

عمليات الميدان الشرقى

وجه الانجليز نشاطهم إلى هذا الميدان منذ منتصف شهر يوليو حيث اقتحمت بعض السفن البريطانية القناة واحتلت مدينة السويس فى ٢ من أغسطس، وفى ١٩ من أغسطس تحرك الأسطول الانجليزى من الاسكندرية بقيادة الأميرال سيمور وكان عبارة عن ٨ مدرعات و ١٨ سفينة تقل الحملة بقيادة ولسلى فوصلت بور سعيد صباح ٢٠ من أغسطس .

عمليات ٢٠ من أغسطس :

١ ـ احتلت كتيبة من الأسطول مدينة بور سعيد دون مقاومة .

٢ ـ احتل الجيش الانجليزى مدينتى القنطرة والاسماعيلية .

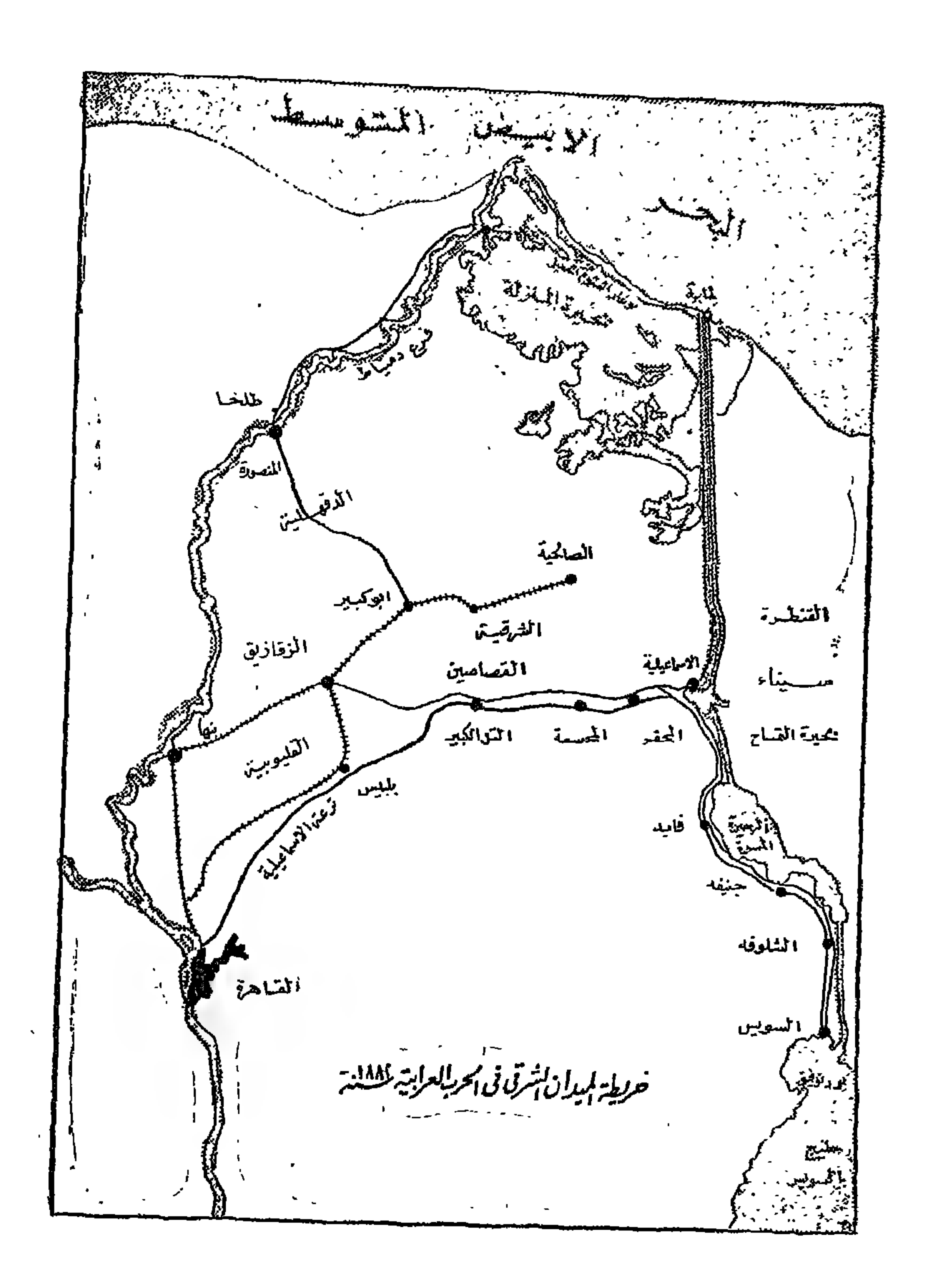
٣ ـ احتل مشاة الأسطول الشلوفة فى شمال السويس .

٤ ـ منع الأسطول مرور أية باخرة تجارية فى القناة (احتجت شركة القناة على خرق حرمة القناة) .

عمليات ٢١ من أغسطس :

١ ـ وصل الجنرال ولسلى إلى الاسماعيلية يصحبه الأميرال سيمور .

٢ ـ وصل المدد من الهند إلى السويس .



خريطة الميدان الشرقي في الحرب العرابية سنة ١٨٨٢

عمليات ٢٢ من أغسطس :

١ — وضع الانجليز أيديهم على سكة الاسماعيلية — السويس — الحديدية .

٢ — وضع الانجليز أيديهم على ترعة المياه العذبة بين المدينتين .

٣ — سمح الانجليز للسفن التجارية بالمرور فى القناة .

وهكذا اتخذ الانجليز من القناة — وهم الذين كانوا يثيرون الدول من تهديد عرابى لسلامتها — قاعدة حربية سهلت الزحف على مصر إذ لولاها ما استطاعوا أن يصلوا من الاسكندرية إلى الاسماعيلية فى ١٤ ساعة . . وما استطاعوا أن يشقوا الطريق إلى العاصمة بهذه السهولة ولو سدت القناة ما حدث هذا كله .

عمليات ٢٤ من أغسطس :

هاجم الانجليز نفيشة واستولوا عليها (وهى نقطة تفرع ترعة الاسماعيلية إلى بور سعيد والسويس) .

وقد سد العرابيون ترعة الاسماعيلية عند « المحفر » ليمنعوا ورود المياه إلى الاسماعيلية . . فهاجمهم ولسلى واحتلها بجنوده .

عمليات ٢٥ من أغسطس :

١ — زحف الانجليز على « المسخوطة » ، واستولوا عليها بعد معركة عنيفة وكانت القوات المصرية بقيادة الفريق راشد حسنى .

٢ — وقع (محمود فهمى) رئيس أركان حرب الجيش المصرى

أسيراً فى يد دورية بريطانية على حين كان يعتلى إحدى القباب مرتدياً ملابسه الملكية ، فكان أسره أكبر ضربة أصابت القوات المصرية من الناحية المعنوية .

ويتهمه عرابى فى مذكراته بأنه أراد تسليم نفسه للعدو كى يخفف عنه الخديو الجزاء وذلك عندما وصل إلى علمه توقع صدور منشور العصيان .

٣ — استولى الانجليز على المحسمة (على مسافة ٢٤ كم من التل الكبير) وقد غنم الانجليز ٧ مدافع كروب وكمية كبيرة من البنادق وقطار ذخيرة .

عمليات ٢٦ من أغسطس :

استولى الجيش الانجليزى على القصاصين دون مقاومة تذكر (على مسافة ٢٥ كم من التل الكبير) .

عرابى فى الميدان الشرقى :

رأى عرابى — نظراً لدقة الموقف — الانتقال إلى الميدان الشرقى (التل الكبير) حيث تشاور هو وأصحابه فى الموقف فتقرر اتخاذ خطة الهجوم فى الحال ، وكان قد وصل فى هذا الوقت اللواء على فهمى يقود الآلاى الأول المشاة والأميرالاى أحمد عبد الغفار يقود آلاى الفرسان ، كما وصلت أورطتان من العساكر السودانية وهما من حامية دمياط .

أما قوات الجيش الانجليزى فكانت موزعة على النحو الآتى :

الجنرال (لو) قائد الفرسان فى المحسمة .

الجنرال (وبليس) فى المسخوطة .

والجنرال (جراهام) فى القصاصين.

معركة القصاصين الأولى :

فى ٢٨ من أغسطس هاجم المصريون مواقع الانجليز فى القصاصين بقيادة الفريق راشد حسنى هجوماً شديداً واستولوا على المواقع الأمامية للانجليز وأجلوا العدو منها إلا أن الانجليز عادوا فقاموا بهجوم مضاد بقيادة الجنرال (لو) فاستردوا مواقعهم بعد قتال شديد من الجانبين . . وخسر الانجليز فى الموقعة ٨ قتلى و ٦١ جريحاً منهم عشرة ضباط . . وتعرف هذه الواقعة بمعركة القصاصين .

معركة القصاصين الأخرى :

توقف الانجليز وهم الذين كانوا يوالون الزحف . . وفى ٩ من سبتمبر عاود المصريون الهجوم بقيادة الفريق راشد حسنى ، يريدون استرداد القصاصين للمرة الثانية وكان مقرراً أن يباغت اللواء البارودى العدو عند الفجر من ناحية الصالحية . . وعند منتصف الليل بدأ راشد حسنى الهجوم ، إلا أن العدو لم يباغت فقد كان على علم بكل تفاصيل المعركة . . لقد سلمت خطة الجيش المصرى بأكملها إلى الانجليز قبل بدء المعركة بوساطة الأميرالاى الخائن على يوسف (الشهير بخنفس) .



الفريق راشد حسنى (أبو شنب فضه)
بطل معركة القصاصين

اشتد القتال من الجانبين ، وكاد المصريون يوقعون الهزيمة بالجيش الانجليزى بل كاد الدوق (أوف كنت) وكان مرافقاً للحملة يقع أسيراً وتلفتوا ينتظرون دخول البارودى فى الميدان حتى يشيع الارتباك فى صفوف العدو إلا أنه لم يصل فى الموعد المحدد حيث كان الانجليز قد رصدوا له مدفعيتهم — إذ كانوا على علم بالخطة — فحال ذلك بينه وبين تحقيق غرضه كما أضله الأعراب عن وجهته فى الصحراء .

كل هذا والمصريون يحاربون بقوة وحماس ، وفى هذا الوقت العصيب حدثت مفاجأة لم تكن فى الحسبان . .

لقد أفرخت الخيانة، ونجحت الدسائس وأثمرت الرشوة والوعود فى إغراء بعض الرجال (بإذاعة منشور إعلان عصيان عرابى) بالآستانة فى ٦ من سبتمبر ، ولقد تلقف الانجليز هذا القرار وطبعوا منه مئات الألوف فى صحيفة (الجوائب) وعهد الخديو إلى سلطان (باشا) بتوزيع آلاف النسخ منه على ضباط الجيش والعمد والأعيان والعربان .

كان لهذا المنشور أثر أشد خطورة من مواجهة الجيش الانجليزى ذاته . . حيث سقطت حجة عرابى فى أنه المدافع عن حقوق الخليفة ، فضعفت الروح المعنوية بين رجال الجيش وفى نفوس بعض أفراد الشعب .

وزاد الموقف حرجا بخروج البطل راشد حسنى من المعركة بعد إصابته فى قدمه مما كان له أسوأ الأثر فى صفوف المصريين الذين حاولوا استرجاع

مواقعهم بقيادة على فهمى فلم يتمكنوا ، حيث خرج هو الآخر جريحاً فى ساقه . وتعتبر موقعة القصاصين الثانية أعظم ما وصلت إليه جهود المصريين فى مغالبة العدو .

بقى أن نقول : إنه كان على عرابى أن يشترك فى هذه المعركة ولو فى مؤخرة الجيش فجموده فى التل الكبير لم يتح الاستفادة من استخدام القوات المقاتلة فى تلك اللحظات الحاسمة .

معركة التل الكبير

ميدان المعركة :

كانت مواقع الجيش المصرى على هضبة ترتفع ثلاثين مترا من خط السكة الحديدية تمتد بانحدار خفيف نحو الصالحية والقصاصين ، والجهة الشمالية لهذه المنطقة أرض رملية مكشوفة ، أما الجنوبية فهى أرض زراعية تخترقها الترع والقنوات وغير صالحة لسير حملات الجنود . . وأنشئت خطوط الدفاع لمسافة ستة كيلومترات من الجنوب إلى الشمال حيث تبدأ السكة الحديدية ، وتحمى هذه المواقع خنادق بعرض يتردد من مترين إلى ثلاثة أمتار وبعمق متر أو مترين ، وخلف الخطوط الأمامية خطوط أخرى تمتد إلى المعسكر الذى على السكة الحديدية والذى يبعد عن معسكر العدو بالقصاصين بمسافة حوالى خمسة عشر كم .

عيوب المواقع :

١ — لم تكن هذه الخطوط كافية للدفاع نظراً لأنها أقيمت بسرعة كما أنها لم تكن قد تم إعدادها عند بدء المعركة .

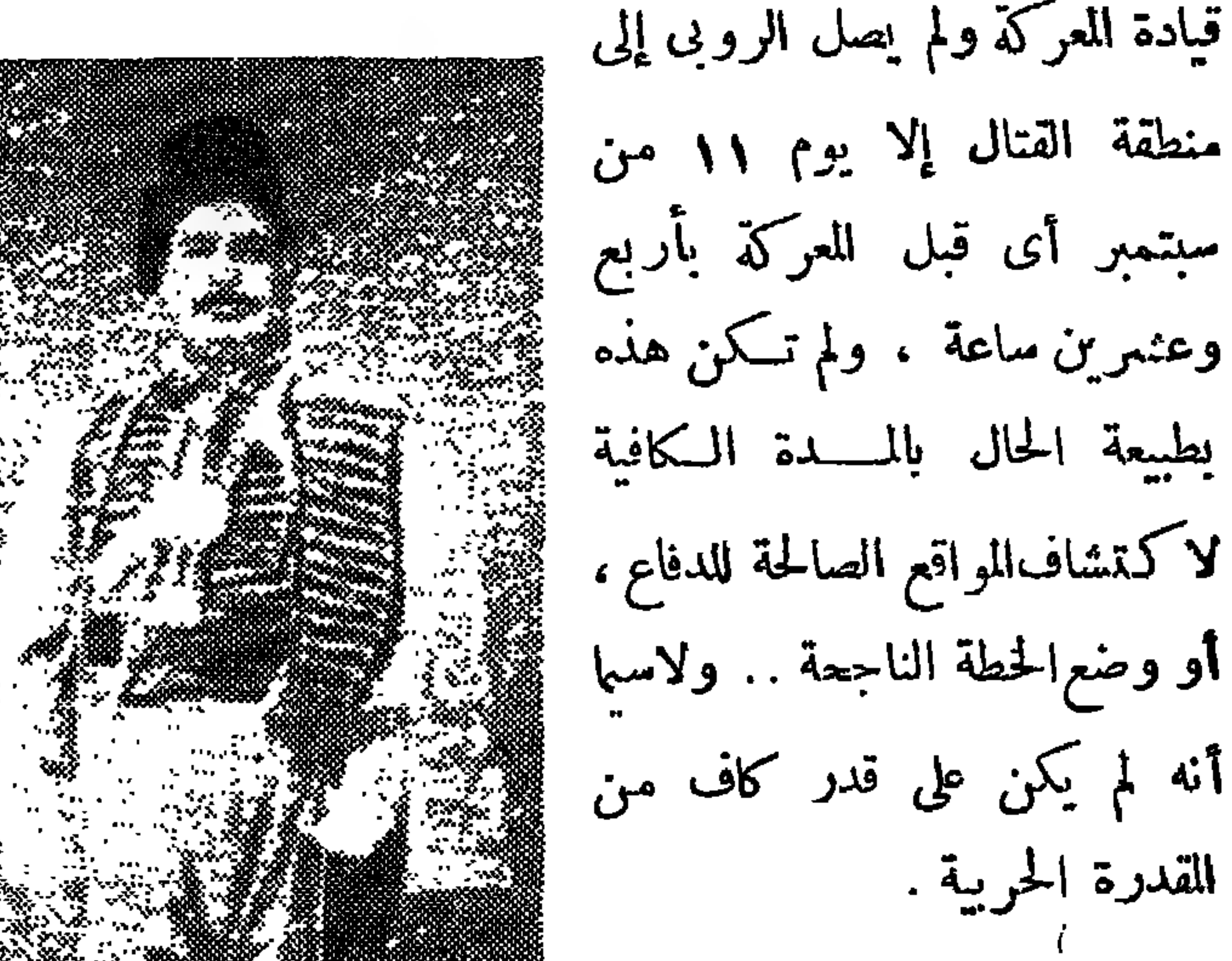
٢ — لم يكن بها العدد الكافى من القوات لصد هجوم العدو .

القوات :

كانت نحو اثنى عشر ألف جندى و ٦٥ مدفعا ، وإن كان قد عاونها بضعة آلاف أخرى من الأعراب والخفراء والجنود غير النظاميين الذين لم يسبق لبعضهم التدرب على إطلاق النار .

القيادة :

استدعى عرابى اللواء (على الروبى) قائد لواء مريوط ، وأسند إليه قيادة المعركة ولم يصل الروبى إلى منطقة القتال إلا يوم ١١ من سبتمبر أى قبل المعركة بأربع وعشرين ساعة ، ولم تكن هذه بطبيعة الحال بالمدة الكافية لاكتشاف المواقع الصالحة للدفاع ، أو وضع الخطة الناجحة .. ولاسيما أنه لم يكن على قدر كاف من القدرة الحربية .



اللواء على الروبى
استدعى من مريوط للدفاع عن التل الكبير

وقبل أن نبدأ فى الحديث عن سير المعركة نرى أن هناك بعض التصرفات التى تؤخذ على عرابى ، وهى :

أولا : كان عليه أن يتولى قيادة المعركة حيث كان لديه الوقت الكافى

لتعرف مواقع القتال بالقياس إلى اللواء على الروبى .

ثانيا : كان من الواجب استدعاء حامية دمياط وكان جنودها من خيرة الجنود المدربين فقد بدأت الحرب وانتهت دون أن تشترك هذه الحامية فى القتال .

العوامل المؤثرة فى المعركة :

١ ــ كانت هزيمة الجيش المصرى فى موقعة القصاصين الأخيرة ضربة شديدة كشفت الموقف الحربى ودلت على ضعف الجبهة المصرية أمام الهجوم الإنجليزى ، وخاصة أن قوات العرابيين قد خسرت أبسل قوادها (راشد حسنى) (أبو شنب فضة) و (على فهمى الديب) فبدا الاضطراب على قادة العرابيين حتى بدأ اليأس يتسرب إلى قلوبهم .

٢ ــ بدأت المعركة وقد أحاطت بجيش مصر عوامل الخيانة والغدر من كل جانب ، فالخديو يبارك هجوم الإنجليز بمنشور جاء فيه :

« ليكن معلوماً عند السلطات الملكية والعسكرية فى منطقة قناة السويس أن أميرال الأسطول الانجليزى وقائد الجيوش البريطانية العام إنما أتيا إلى مصر لإعادة الأمن والنظام إليها ومن ثم سمحنا لهما باحتلال جميع الأمكنة التى يريدان احتلالها ومن خالف أمرنا هذا ينزل به أشد العقاب » . .

والسلطان خليفة المسلمين لم تفرخ دسائسه إلا فى هذا الوقت العصيب ليخرج بمنشور يعلن فيه أن كل من يقف فى وجه الإنجليز يعتبر خارجا على الدين . .

كما تفشت الخيانة فى صفوف الجيش نتيجة ضعف الروح المعنوية وشراء الذمم وإغراء الذين يكفون عن المقاومة بالعفو بعد أن ظهرت بوادر الغلبة للانجليز . . كما كان البدو طابورا خامسا للعدو . . يرشدونه لمواقع الجيش المصرى .

تحضيرات الهجوم :

١ — اختار ولسلى الهجوم من جهة الشمال .. ولو أنه طريق أطول من الطريق الجنوبى وفى أرض رملية مكشوفة فإنه يتفادى الترع والقنوات التى تعترض تقدم القوات من الجهة الجنوبية التى لا تصلح لسير الحملات .

٢ — كما أنه قرر الزحف فى أثناء الليل كى يتقى أشعة الشمس المحرقة حيث إن تقدم قواته كان عبر الصحراء .

٣ — ولكى يحقق المفاجأة قرر أن يكون الهجوم ليلا ، وأصدر أوامره باطفاء كل الأنوار إطفاء تاما فى أثناء السير .

٤ — ساعد على تحقيق المفاجأة أن المصريين لم يقيموا الدوريات أمام الاستحكامات ولذلك اختار الليل موعداً للقيام بهجومه .

٥ — استعان فى أثناء سيره بالبدو الذين أرشدوه إلى المعسكر المصرى وإلى مواقع المصريين .

سير المعركة :

وفى منتصف الساعة الثانية بعدمنتصف ليل يوم ١٢ من سبتمبر

بدأ ولسلى زحفه فى خمسة عشر ألف جندى وستين مدفعا (١١٠٠٠ من المشاة و ٢٠٠٠ من الدفعية و ٢٠٠٠ من الفرسان يعاونهم بعض قوات المهندسين وعمال الاشارة) .

وكان يتقدم قواته بعض ضباط الأسطول الذين تمرسوا على الاسترشاد بالنجوم فى الناطق الصحراوية ، إلا أنهم لم يستطيعوا الاهتداء إلى مسالك الصحراء التى تقود إلى المعسكر المصرى لولا بعض البدو من عربان الهنادى ممن اتخذهم الإنجليز مرشدين جواسيس .

خيانة السوارى :

ظل الجيش الانجليزى يوالى زحفه مسافة خمسة عشر كم دون أن يلقى أية مقاومة .

وقد كان فى المقدمة سلاح السوارى الذى استمال « سلطان باشا » قائده الأميرالاى أحمد عبد الغفار تحت ضغط أسرته فى تلا ، فقد أرسل الأميرالاى على يوسف الشهير بخنفس قائد السوارى فى المقدمة إلى عرابى — والجيش الإنجليزى يتقدم — يخبره أن الإنجليز لن يتحركوا فى ذلك اليوم . . فركن الجيش إلى الراحة فى الوقت الذى كان العدو قد وصل فيه إلى القطاع الشرقى لمواقع الجيش المصرى والذى كان مكلفا بحراسته الآلاى الثانى السوارى بقيادة القائمقام عبد الرحمن حسن فاتجه بفرقته إلى الشمال ليترك الجيش الإنجليزى يمر فى أمان . . ويقال إن خيانة هذا النفر لم تقف عند هذا الحد ، بل وضعت المصابيح للعدو على المسالك ليسترشد بها وليخترقها فى يسر !



معركة التل الكبير
« مباغتة الجنود المصريين »

مفاجأة المعسكر المصرى :

والى الإنجليز الزحف حتى مطلع الفجر إلى أن صارت قواتهم على مسافة ٢٥٠ ياردة من التل الكبير ففاجئوا المصريين بالهجوم حيث كان الجنود نائمين بعد أن ركنوا إلى الراحة ، ولم يستيقظوا إلا على إطلاق النار فى موقعهم عندما وجدوا العدو يحيط بالمعسكر على شكل نصف دائرة . . ولم يلبث ولسلى أن أمر باقتحام الاستحكامات الأمامية فاستولى عليها الإنجليز ، وخسروا فى هذه العملية نحو مائتين من الجنود . . ثم تابعوا الهجوم على خط الاستحكامات الثانى واستولوا عليه أيضاً ، وقد تمكنت إحدى الكتائب من التوغل داخل المواقع ، وفتكت بنادقها بالمصريين فتكا ذريعا ، كما أحدق الجنرال « لو » بميسرة المصريين بقصد الاستيلاء على محطة التل الكبير التى وقعت فى يديه ، وأحاط الإنجليز بالمعسكر المصرى من كل جانب حتى استولى الذعر على الجنود فألقوا بالأسلحة ولاذوا بالفرار . .

أبطال :

ولم يخل الميدان وسط هذه المحنة من نفر من المصريين حفظوا شرف قومهم فقد ثبت للدفاع آلايان من السودانيين بقيادة الأمير الاى محمد عبيد (بطل الهجوم على قصر النيل) الذى ظل يقاتل قتالا شديداً حتى استشهد هو ومعظم جنوده

أما الدفعية فقد أصلت الإنجليز ناراً حامية بقيادة اليوزباشى حسن رضوان ، الذى ظل صامداً حتى حمل إلى ولسلى فسلم له سيفه احتراماً لبسالته . وكان جلال هذا العمل يمحو من النفوس شيئاً مما تركته خيانة خنفس ومن حذا حذوه .

بقى أن نقول أن بعض المؤرخين من كتاب الاحتلال غالوا حين زعموا أن الانجليز فاجأوا عرابى وهو فى حلقة ذكر بين جنوده ! ولكن ما قصد تلاميذ دنلوب إلا أن نغفل الخيانة فى هزيمة عرابى !

الهزيمة :

لم تدم المعركة أكثر من نصف ساعة لم يقاتل فيها سوى ٣٠٠٠ جندى وضابط استشهد أكثر من نصفهم حيث بلغت خسائر المصريين حوالى الألفين فى حين أن خسائر الانجليز تكاد تكون أقل من المائة منهم ٩ ضباط ، ٤٠٢ جريحاً ، وقد غنم الانجليز أسلحة وذخائر ومهمات الجيش المصرى أما عرابى فحين رأى الخيانة تطبق عليه والجند وقد انتابهم الذعر ركب

حصانه ومعه عبد الله نديم وأسرعا بالعودة حتى أدركا قطاراً عند الزقازيق، فوصلا إلى القاهرة عصرا .

أما عن القاهرة وعن القلق الذى ساد أنحاءها . فإنها كانت تعتقد حين وصل عرابى أنه قد وصل وهو يحمل رأس سيمور ولو علمت الحقيقة لعرفت أن مصر قد ارتدت فى تلك الساعة حلة أرجوانية من نسيج الاستعمار وبذلك تمت المأساة ! . .



حسن رضوان
ردوا له سيفه

يوم الاحتلال

باتت القاهرة فى ذلك اليوم فى قلق عظيم .. فالعامة والغلمان يطوفون بالشوارع يصيحون بالدعاء والتكبير . . والناس جميعاً يروحون ويغدون فى انتظار أخبار الوقعة الفاصلة . . وحكمدار المدينة ابراهيم بك فوزى لايفتر لحظة عن الطواف فى الميادين والأحياء ليمنع أى هجوم للرعاع والدهماء على المتاجر والأوربيين . . والمجلس العالى الذى كان قائماً بادارة الحكم فى البلاد ظل مجتمعا طيلة النهار دون أن يتلقى خبراً حتى ساوره القلق . . ولازم يعقوب سامى (باشا) وكيل وزارة الحربية مكتب التلغراف دون أن يكاشف أحدا بآخر الأنباء إلى أن أخبر الحاضرين أن (عرابى) قادم على عجل إلى العاصمة .

وصل عرابى ظهر ١٤ من سبتمبر فى قطار صادفه عند الزقازيق، منهوك القوى يصحبه اللواء على الروبى ، وجلس على مقعده وعلائم الاضطراب بادية عليه ، وظل صامتاً لا يتكلم . . فأيقن المجلس أنها الهزيمة لامحالة . .

وأخذ عرابى يشرح أسباب الهزيمة ثم أضاف أن فى الإمكان درءها عن العاصمة . . وأن الأمل مازال قويا .. فهناك حامية القاهرة فى القلعة وحامية دمياط التى لم تشترك فى القتال وقوات كفر الدوار ، فثار فى

وجهه بعض الأعضاء قائلين : ألم تكف هزيمة التل الكبير لتضيف إليها تدمير القاهرة التى لاتحتمل مدافع الإنجليز ؟

وأخذ الأعضاء يتصايحون وتشاور المجلس : أيصير تسليم القاهرة للانجليز أم يصير الدفاع عنها .. ؟

واختلفت الآراء وتشعبت الأفكار .. وكاد الرأى بالتسليم يغلب حيث دب اليأس فى النفوس بعد هزيمة الميدان الشرقى ، لولا أن وقف الأمير إبراهيم أحمد (باشا) ابن عم الخديو وكان نصيراً قويا للثورة فحث الحاضرين على الاستمرار فى المقاومة وأخذ يبث روح الكفاح قائلا :

إن وسائل الدفاع متوافرة والواجب هو الدفاع مادامت فينا بقية .

وعاد المجلس وأمن على كلام الأمير . . واستقر الرأى على انشاء خط دفاعى فى ضواحى العاصمة وكان من الممكن الثبات لو أن النفوس ظلت مؤمنة وبقيت السواعد قوية .. وكانت القيادة حازمة . . لقد أوقف من قبل أهالى القاهرة وحدهم بزعامة السيد عمر مكرم جحافل الفرنسيين بقيادة بونابرت أعظم قادة التاريخ . مع أن أسلحتهم فى الدفاع لم تكن سوى البنادق والهراوات والتاريس على حين أن القوات الزاحفة فى تلك الحرب لم تكن سوى بضعة آلاف قليلة يمكن صدها .. وفى ذلك يقول (يوفيس)

« ولم يكن الجنرال (لو) يزحف فى طريق آمنة . إذ لم يكن معه سوى عدة مئات من الجند ، وكانت أمامه مدينة آهلة بالسكان تدافع عنها حامية كبيرة ترابط فى العباسية والقلعة . . وأمامه ذكريات الثورات الهائلة التى

سببت المتاعب والخسائر الكبيرة لنابليون أثناء الحملة الفرنسية .. ولكن تردد الرؤساء العرابيين قد أخرجه من المأزق .

كما أن الجنرال ولسلى القائد العام للحملة الانجليزية لم يكن من القادة المشهود لهم بالكفاية الحربية ، بل كان قليل الحنكة والدراية .. فشل فشلا كبيراً فى حرب البوير .. فعين قائداً لهذه الحملة ليعوض مافاته من نصر .



الجنرال ولسلى
« لم يكن من القادة المشهود لهم بالكفاية الحربية »

نهض عرابى إلى العباسية ومعه « المرعشلى باشا » كبير مهندسى الاستحكامات ورضاباشا قائد الخيالة .. وبعد تقدير الموقف تقرر اتخاذ الخط الدفاعى أمام المطرية شرقى عين شمس ..

وبعد معاينة الخط توجه الجميع إلى رياسة الطوبجية حيث استعرض عرابى الجنود فلم يجد سوى عدد ضئيل ، كما لم يجد سوى مائة من جنود السوارى بقيادة الأميرالاى أحمد بك نير الذى قال لعرابى إنه على استعداد أن يقف فى وجه العدو ويقاتل برجاله المائة حتى يموت معهم .

لقد اختفى الضباط والجنود .. ونزلت حامية كفر الدوار بقواتها إلى

المدن والقرى دون أن تصل لها الأوامر بالتسريح .. وهنا أدرك عرابى أثر قرار السلطان بالعصيان ، وفعل المال بالنفوس .

وصور عرابى الموقف فى هذه اللحظة فقال :

«فلما شاهدنا كل ذلك رأينا أن الأولى حقن الدماء ، وحفظ القاهرة من غوائل الخراب والدمار كما حصل فى الاسكندرية مادامت المقاومة لم تجد نفعا ، وفضلنا تقديم أنفسنا فداء عن الأمة المصرية السيئة الحظ .. فرحنا إلى المجلس العالى ، وأخبرناه بما عن لنا ! »

. وبناء على ذلك قرر المجلس العالى إيفاد (بطرس غالى باشا) وكيل الحقانية (ورءوف باشا) (وعلى الروبى باشا) إلى الخديو لاستعطافه بعد استكتاب عرابى التماسا بالعفو حيث قبل عدم الاستمرار فى المقاومة — فقبل الخديو بشرط موافقة قائد الجيوش الانجليزية . وأمر على الفور باعتقال اللواء الروبى .

وبينما كان هذا يجرى .. كان الانجليز يجدون فى أعقاب عرابى .. زاحفين على القاهرة فى غير إبطاء .. فقد احتل الجيش الهندى الزقازيق دون مقاومة بقيادة الجنرال مكنوش بعد الاستيلاء على خمسة قطر مشحونة بالمؤن والذخيرة كما وصل الجنرال (لو) بالخيالة الإنجليزية إلى بلبيس يوم الأربعاء ١٤ من سبتمبر حيث حجز البرقيات التى كان قد أرسلها عرابى من هناك بعد عودته إلى القاهرة يستنهض بها البلاد لمقاومة الزحف . .

ثم استأنف « لو » سيره قاصداً العاصمة بقوة لاتكاد تصل ألف جندى .. ولاتكاد تكفى المحافظة على الأمن بل لاتكفى لحراسة منشآت

هذه المدينة الكبيرة .. ولكن الروح التى لازمت القادة فى معركة التل الكبير .. والخيانة التى فتت فى عضد المحاربين . والضعف الذى انتاب الكثيرين — كل هذا جعل « لو » يستهين بمصر وبالمصريين .. !

وجد الإنجليز باب العاصمة مفتوحاً ، فوصلوا العباسية فى الساعة الرابعة من مساء الخميس ١٥ من سبتمبر ، وأرسل الجنرال « لو » إلى (رضا باشا) قائد الثكنات يطلب تجريد الجنود المصريين من أسلحتهم ، فاتصل هذا بعرابى الذى أمره بالكف عن المقاومة تقديراً للظروف ، وعرج القائد الإنجليزى بجنوده الخمسمائة على القلعة — وكأن الخائن الأميرالاى على يوسف خنفس — لعنه الله — لم يكفه كل الخيانات السابقة من تسليم العدو خطة القصاصين ، ومن تقديم رقاب المصريين إلى سيوف الإنجليز فى معركة التل الكبير ، فأبى إلا أن يسبقهم إلى القلعة ليكون له شرف السبق فى تسليم مفاتيحها لأسياده الإنجليز !

.. وفى المساء احتل العدو معسكر قصر النيل .

كان عرابى فى هذا الوقت فى بيت اللواء على فهمى الديب الذى كان قد جرح فى معركة القصاصين مجتمعاً باللواء طلبة عصمت قائد حامية كفر الدوار وسامى البارودى رئيس الوزراء .. ثم أقبل عليهم مسيو نينيه السويسرى صاحب كتاب (أحمد عرابى) فنصحهم بتسليم أنفسهم أسرى حرب للجيش البريطانى . . واستصوب عرابى رأيه خوفاً مما قد يحل به على يد توفيق . . أما البارودى فقد رفض هذا العرض قائلا :

« إنى لن أسلم نفسى بل إنى ذاهب إلى منزلى .. فإن أرادونى فليقبضوا على حيث يجدوننى .. »



محمود سامى البارودى
« لن أسلم نفسى »

.. وبينما عرابى يهم بالخروج لتسليم نفسه وصلت برقية من اللواء البارودى قائد حامية الصالحية يطلب من عرابى الاستمرار فى المقاومة وإذا أعياه الموقف فليقم بإغراق مديريتى القليوبية والشرقية لتعطيل زحف الأعداء .. ولكن (عرابى) أمره بالتسليم .

ذهب عرابى إلى بيته يصحبه طلبة عصمت ولبس رداءه الرسمى واتشح بسيفه .. وتوجه الاثنان فى عربة إلى ثكنات العباسية عصر يوم الجمعة حيث جيء بهما إلى الجنرال لو فسلما سيفيهما إليه . فبادرهما بقوله :

« هل تقبلا أن تكونا أسرى حرب لجلالة الملكة ؟ »

.. فأجاب عرابى :

« نحن ماحاربنا إلا لندافع عن شرف بلادنا .. وإن كنا قد كففنا عن القتال فلثقتنا فى شرف الأمة الانجليزية » .

.. وعلى هذا سلم عرابى سيفه للجنرال « لو » الذى أمر باعتقاله واعتقال طلبة عصمت وإيداعهما إحدى الثكنات .

.. وبهذا سلم الجميع عدا (عبد العال حلمى) أحد زعماء الثورة الذى اعتصم فى حصن دمياط وأراد أن يقوم بحركة عدائية لولا أن نصحه بعض الضباط فسلم .

.. وفى الوقت الذى نزل فيه عرابى سجيناً كان الجنرال ولسلى قائد الحملة الانجليزية فى طريقه إلى قصر عابدين ومعه ساطان « باشا » نائباً عن الخديو ، وعندما رأى الأهالى الإنجليز يدخلون القصر بقبعاتهم البيضاء وشواربهم الصفراء أثار هذا شعورهم فخرج سكان الأحياء الوطنية : الحسينية ، وباب الشعرية ، والسيدة زينب بالعصى والهراوات يقصدون مقاومة الغزاة ، ولكن محافظ القاهرة رأى فى هذا عملا لا طائل تحته . فردهم حتى لا يحدث احتكاك بين الانجليز والأهلين .

وبهذا أسدل الستار على قصة كفاح هذه الثورة .. ولبست مصر السواد حداداً على الحرية التى فقدها أبناؤها .. وامتد الخنجر ليطعن مصر فى الصميم .

موكب الحراب

سقطت العاصمة وخمدت الثورة ، وخلت المدينة من جند مصر . . فقد ألغى توفيق الجيش بجرة قلم . . وعاد الفلاحون الذين قدموا لمناصرة الثورة إلى قراهم ، وقلوبهم تنزى أسى وألما . . وانتظر كل حر شريف ساعة الانتقام . . ولم يبق ركن من البلاد إلا وقد خيم عليه ظلام قاتم رهيب .

وهناك فى الإسكندرية خرج توفيق من حماية الأسطول . ولم يجرؤ أن يدخل العاصمة حتى تم تسليم المعاقل . . وحدد يوم ٢٦ من سبتمبر موعدا لعودته إلى القاهرة التى ناصرت (عرابى) . . ولم يطمئن الخديو أن يعود سالما إلى قصره إلا بعد أن أصبحت المدينة تعج بالحراب الإنجليزية . لم ير المواطنون على جانبى الشوارع فى ذلك اليوم جنودهم المصريين والسودانيين ، وإنما رأوا والاشمئزاز يذهل نفوسهم والأسى يعتصر قلوبهم جنودا حمر الوجوه بقبعات بيضاء عالية تكاد تحجب أسلحتهم المشرعة عن العيون !

وزينت المحطة بالأعلام ، وبدأ كل شىء فى هذا اليوم وقد تجلل بالسواد . وعلقت بالقهر الرايات فى الشرفات والمنازل ، وإن كانت الأبصار قد ارتدت خاسئة عندما رأت بين الهلال والنجوم رايات حمراً هى رمز جيش الاحتلال .

وبين أفاريز المحطة ودهاليزها تجمع الخونة الذين تسابقوا إلى بيع

الوطن وظهرت وجوه خرجت من الجحور . . كانت قد اختبأت قبيل اشتعال الثورة وعند إعلان الكفاح . . أرسل توفيق إلى معظمهم فى مصايفهم فى أوربا ، يستدعيهم على عجل ، عندما دنس الغزاة أرض الوطن فجمع الاحتلال شتاتهم وألف الذل بين قلوبهم !

وصل القطار الذى استقله الخديو من الإسكندرية فى منتصف الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم ، وبصحبته القنصل البريطانى المستر «مالت» ورجال الأسطول ، ونفر من الحاشية الخديوية ، وما إن لمست قدم توفيق إفريز العاصمة حتى تقدم رياض — وكان توفيق قد أسند إليه وزارة الداخلية هاتفا بأعلى صوته فى موجة من الفرح والسرور : « يعيش الخديو مؤيدا بالنصر والإجلال ! » وكأنه كان يعلن الشماتة فى الثوار المهزومين . . . !

ثم استقل الخديو وعلى فمه ابتسامة حائرة مركبته التى أحاطت بها كوكبة من الفرسان الإنجليز على صهوات جيادهم ، تتبعها عربات النظار تجر أذيال الذل والعار ، وتحرك الموكب يتهادى بين صفين من حراب الإنجليز حتى ظهرت عربة الخديو الذهبية فها هو ذا توفيق وبجانبه دوق كنت نجل ملكة الإنجليز ، وكان ضمن ضباط الحملة وجلس أمامهما الجنرال ولسلى قائد جيش الاحتلال والأميرال سيمور قائد الأساطيل . . كما لمح الناس فى المؤخرة عربة تجاور فيها شريف ورياض ، كان الأول يبكى ، وكان الآخر يبتسم !

واستولى على جموع المشاهدين صمت كصمت القبور قطعه عزف الموسيقى بالنشيد الإنجليزى عندما وصل الموكب إلى ميدان عابدين . . فكان هذا

بمثابة إعلان للناس عن التغير الجديد الذى طرأ على البلاد . فأطرق الناس حزنا وخزيا وأحس كل مصرى بالأسى والألم الدفين .

فماذا بعد تدنيس أرض الوطن بأقدام المحتلين . . ؟

وأى مروق بعد مباركة حاكم البلاد لأعداء البلاد ؟

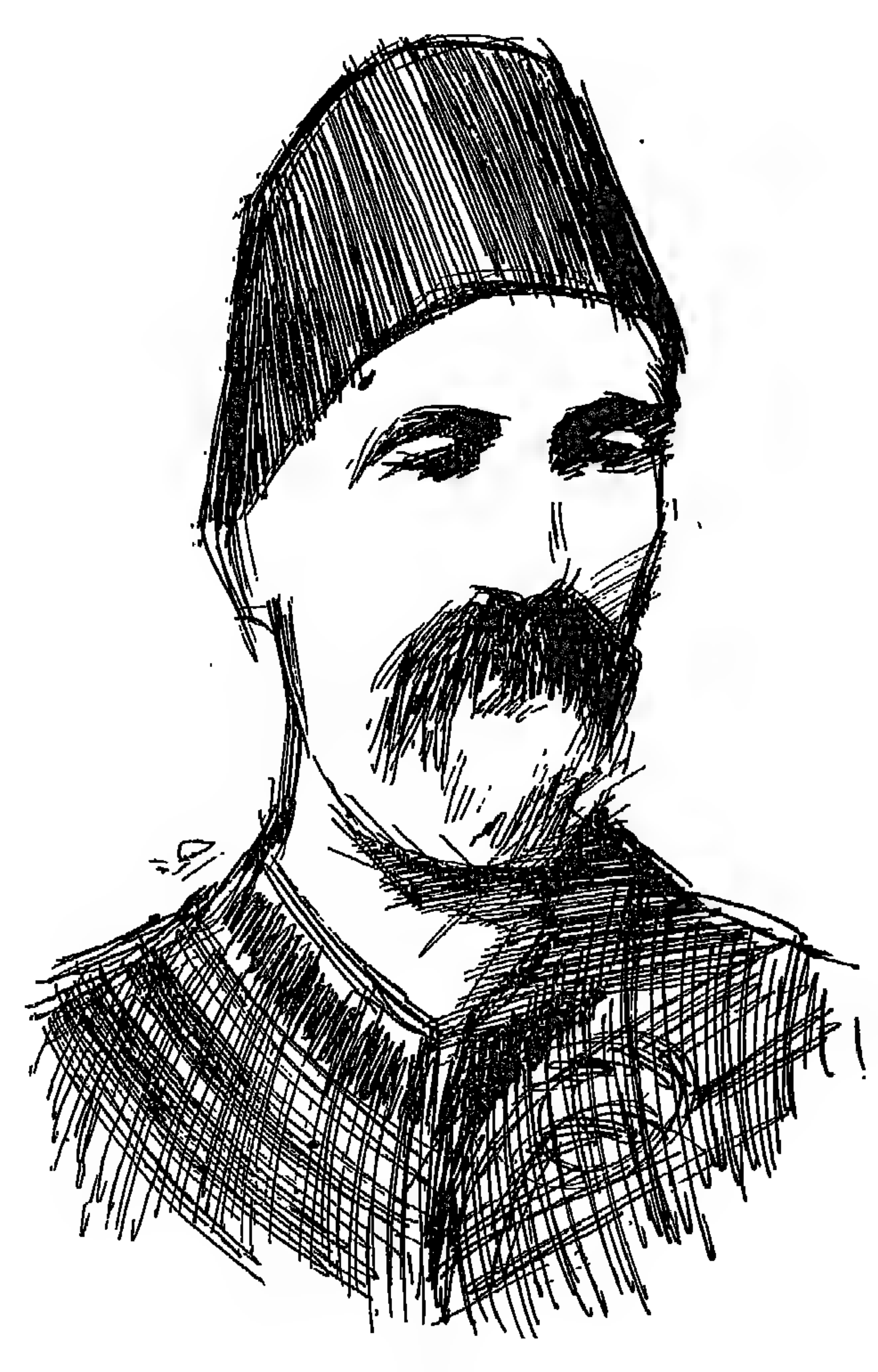
ولكن كل ما كان يفكر فيه الحاكم ليس دفع الذل أو طرد المحتل إنما كل همه فى كيف يظفر برأس عرابى ، وكل جريرة الرجل أنه طالب بحقوق بلاده وحرية وطنه .

لم يكتف رياض بالشماتة فى حق مواطنيه بل أقام فى المساء مأدبة عشاء فاخرة تكريما لقائد الجيش الإنجليزى وضباطه . . وبعد العشاء وقف يشرب فى غير حياء — نخب ملكة الإنجليز والجيش البريطانى .. ووقف الجنرال ولسلى يشرب نخب الخديو ورياض !

وتسابق الخونة فى إرضاء السيد الجديد ، ولم يكن هو « توفيقا » الذى لم يعد له من السيادة سوى مظهرها الكاذب :

موسيقى تصدح أمام قصره . . وحرس يحيط به . وألقاب زائفة تضاف إلى اسمه ، وأوسمة تزين صدره . . أما السيادة فللإنجليز . . يدلك على ذلك ماجاء بمذكرة اللورد « جرانفيل » وزير الخارجية إلى معتمد إنجلترا الجديد السير « افلن بارنج » :

« يجب عند البحث فى المسائل المهمة الخاصة بسلامة مصر وإدارتها أن تتبع نصائح حكومة جلالة الملكة ما دام « الاحتلال المؤقت » مستمرا . .



رياض باشا

شرب نخب الاحتلال

وعلى الوزراء والمديرين تنفيذ هذه النصائح .. وإلا أقيلوهم من وظائفهم ! »

وهنا بدأ الأذناب والأذيال والمرتزقة يولون وجوههم قبل من أصبح له السلطان فقاد سلطان (باشا) ومعه أحمد السيوفى مجموعة من المرتشين والخونة والملوثين والمارقين إلى رياض يبلغه أن هذه الوفود تريد أن تقدم هدايا فاخرة إلى قواد جيش الاحتلال شكراً لهم على إنقاذ البلاد من غوائل الفتنة ، وكان نصيب ولسلى بطل مذبحة التل الكبير سيفاً من الذهب الخالص . . وسيمور مخرب الاسكندرية طبنجة من الماس . . ورد الانجليز على الفور الجميل بالإنعام على سلطان بوسامى سان ميشيل وسان جورج مكافأة له على ما بذله فى خدمة الجيش البريطانى !

وفى اليوم التالى جارى توفيق أسياده الإنجليز فأنعم على سلطان بالوسام المجيدى وعشرة آلاف جنيه ذهباً لا زيف فيها جزاء له على بث الخيانة فى صفوف المصريين !

وكأن هذه المكافآت السخية كانت حافزاً لكى يجدد سلطان نشاطه ، فأمر بإلقاء القبض على من شاء . .

وفغرت السجون أفواهها لزعماء الثورة وأنصار الحرية ، وضمت جدرانها حسن الشريعى (باشا) وزير الأوقاف ، وعبد الله فكرى (باشا) وزير المعارف لاستنكارهما انضمام توفيق إلى الإنجليز ، وشيخ الإسلام الشيخ الامبابى لاعلانه مروق الخديو من الدين ، وصفوة العلماء وعلى رأسهم الامام محمد عبده والشيخ العدوى والضباط فوق رتبة البكباشى .. حتى بلغ المقبوض عليهم أكثر من تسعة وعشرين ألفاً ، وخرج ضعاف

النفوس كالخنافس يسعون فى الظلام بالوقيعة والوشاية وأحس كل المصريين بالسلطات تبطش بهم فلجأ الناس إلى التذلل والنفاق ! وانكمش السواد ولم يعد أحد يرضى إلا أن يعيش بعيداً عن هذا المحيط المسموم الذى توارت فيه العزة القومية . . وهوت فيه الأخلاق إلى الحضيض . .

ولم تكف يد البطش عن التنكيل بالأحرار داخل الديار ، بل تعدت الحدود تحاول القبض على كل من لاذ بالفرار خارجها خشية الاضطهاد والتعذيب ، حتى تمكنت من وضع يدها على اثنين من كبار الثائرين هما السيد حسن موسى العقاد والقائمقام سليمان سامى ، وكانا قد تمكنا من الهرب على إحدى السفن إلى كريت ولكن الخديو أرسل إلى الحكومة التركية يطلب تسليمهما فأجابته إلى مطلبه . . وكان الأول سر تجار القاهرة ، والآخر أحد قادة الوحدات فى الدفاع عن الاسكندرية الذى أتهم بحرقها وقد حوكم وتقرر إعدامه .

. . ولم يتمكن من الاختفاء سوى السيد « عبد الله نديم » خطيب الثورة العرابية ، فترة طويلة إلى أن تم القبض عليه فى إحدى قرى مركز الصف .

وكما أن الاضطهاد والاعتقال والتشريد كان نصيب الأحرار ظهر الجزاء بعد ذلك فى المناصب والرتب بصورة واسعة للخونة والمارقين والجبناء كتعيين الشيخ المهدى شيخاً للأزهر بعد إقالة الشيخ الامبابى الذى أثبت خيانة الخديو وإعادة عمر لطفى وزيراً للحربية وعلى مبارك

وزيراً للمعارف ونوبار نصير التدخل الأجنبي وزيراً للمالية ، بل أضحى حبك الخيانة التزكية المثلى عند الحاكم .

كان توفيق يتطلع إلى اليوم الذى يساق فيه عرابى وأصحابه إلى المشنقة .. وكان من المقرر إعدام عرابى ولكن خشى الانجليز إثارة النفوس فآثروا سجنه ونفيه حتى يخففوا من حدة الشعور الوطنى ضدهم ، ويحولوا القسط الأكبر من المقت والكره والازدراء إلى الخديو . واتفق توفيق مع شركائه الجدد على طريقة محاكمة زعماء الثورة فأرق اللورد جرانفيل متوعداً الحكومة الخديوية بالبلاغ التالى :

« إنه ليس هذا أوان ظهور الحكومة المصرية بمظهر الممانعة والمعارضة وإن استمرارها على هذا الاجراء يعرضها للفشل والخطر ، ولا تكون هذه النتيجة مقتصرة على الوزارة وحدها بل تتناول مركز الخديو نفسه ، وإذا لم تقبل الحكومة المصرية وجهة نظر الحكومة الانجليزية فلا يسع هذه إلا أن تتحمل تبعة ما يترتب على رفضها من النتائج السيئة بعد انقضاء ثمانية أيام من تبليغ هذا الانذار . . »

. . وهنا انكشف الستار وزالت الغشاوة عن عينى توفيق . . وسقط ادعاؤه بأن التدخل الأجنبى موقوت بقمع الثورة ، بل أدرك أن العزل قد يكون جزاءه أيضاً إذ هو جرؤ على معارضة أسياده .

فهذا هو ثمن الخيانة ! بل هذا هو أسلوب الاستعمار لايعنيه إرضاء العميل أو إذلاله بقدر مايعنيه تخدير الشعب وتهدئة الخواطر !

هذه الثورة فى الميزان

تضاربت آراء المعاصرين ، واختلفت نظرة الكتاب فى الثورة التى قادها أحمد عرابى بحجة أنها انتهت بالاحتلال . . وإن كان أحد لا يجرؤ — حتى الخصوم — أن ينال من وطنية هذا الزعيم الفلاح برغم قسوة الأقلام التى سخرت منه وجارت عليه فأطلقت الكثير من السحب حتى حجبت الحقائق عن العيون .

فهل نسى أصحابنا الذين يرمون هذه الثورة بأنها قادتنا إلى الاحتلال — هل نسوا أننا كنا قبل نشوبها محتلين أيضاً من الأتراك ؟ وأنها لم تنحدر بنا من الاستقلال إلى احتلال ، بل انتقلت بنا من احتلال إلى احتلال . . فغرس فينا هذا التغير أو هذا الانتقال شيئاً لم نكن لنشعر به من قبل ، ألا وهو الكره والمقت لكل غاصب أو محتل — مهما كان — فهذا الشعور لم نكن نحس به من قبل !

أدركنا خلال هذه — الثورة — أن الحكم التركى احتلال أيضاً وأن الاحتلال واحد مهما تعددت صوره واختلفت أشكاله . . وبهذا حطمت الثورة العرابية الفكرة التى استولت على عقولنا والتى كانت قد رسبت فى نفوسنا من أن الوالى صاحب الحق فى أن يحكمنا أو أن يمتلكنا حتى أضحت نظرتنا إلى السلطان عبد الحميد مثل نظرتنا إلى الملكة اليصابات ! إذ وضح

لنا أنه ليس هناك — بعد موقف الخليفة منا — كبير فرق بين حكومة جلالة انلكة فى لندن وحكومة الخليفة فى الآستانة . فكلتاهما طامعة فى بلادنا متطلعة إلى إذلالنا : هذه حكمتنا بالمدفع ، وتلك ضيعتنا باسم الدين!

وهل لو لم يثر عرابى : أفكانت مصر تستطيع تجنب مؤامرة الاحتلال أم أن هذا الاحتلال كان واقعاً حتما ؟

أغلب الظن أن المؤامرة كانت تخطو سريعاً نحو خطتها المرسومة بعد إنشاء قناة السويس . . حتى لولم يحارب عرابى لأنه لم يسع إلى هذ الحرب بل اضطر إليها اضطرارا وهى لم تكن حرباً بالمعنى الصحيح بل كانت ثورة وجهادا ، ثورة سلمية حرص فيها عرابى أن تظهر عادلة سليمة تؤمن بالشرف السياسى والرأى العالمى .

بل بدا عرابى فى كل مواقفه الحربية محارباً مسالما لإيمانه بأن الحق إذا أتى بالمسالمة أفضل مما لو أتى بالسيف .

ففى الوقت الذى كانت المؤامرة الاستعمارية تسعى وتعدو لاستثارة عرابى حتى يخرج عن أسلوبه السلمى لا يجد سيمور من سبب يتعلل به ليضرب المدينة الوادعة بالأساطيل سوى مشاهدة بعض الترميمات فى إحدى القلاع . . وما فى هذا من خطورة على الأسطول الرابض فى البحر وطلب انتزاع المدافع فوراً من الحصون .

ولا يدع له عرابى الفرصة لتنفيذ المؤامرة فيبعث له قائد البحرية المصرية ليؤكد له النوايا المصرية الحسنة وعدم صحة الأخبار التى تشيع بأن تحصين الطوابى لإغراق الأسطول .

فتزيد التهدئة والتأكيدات المصرية السلمية من غضب سيمور .. فيسرع في توجيه الإنذار بضرب المدينة الوادعة مع إشراق الشمس فى الصباح ..

فماذا كان رد عرابي على هذا العمل الفاضح الشائن . . والتعنت الذى ليس له مثيل ؟ .

جمع قناصل الدول يشهدهم على حسن نية مصر .. وعرض على الخديو والحكومة مجتمعين موقفه من الإنذار . . فاجتمعت الكلمة على الرد على الإنذار بما يحفظ للأمة كرامتها وعزتها مع إظهار النوايا السلمية فى بيان صدر غاية فى الحكمة والوطنية :

« لم تفعل مصر شيئا يقضى بإرسال هذه الأساطيل المتجمعة . . ونحن هنا فى بيتنا ووطننا .

— ومصر الحريصة على حقوقها وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم أى مدفع ولا أية طابية ، دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح .

فهى لذلك تحتج على بلاغكم وتحملكم مسئولية هجوم الأساطيل وإطلاق المدافع على بلد آمن ينعم بالسلام .

وأيضا تقرر مصر من باب المسالمة قبول إنزال ثلاثة مدافع يختارها الأميرال .

ولن تجاوب المدفعية المصرية على مدافع الأسطول إلا بعد إطلاق الطلقة العاشرة » . .

وهنا ينتهى البيان .

ومع هذا لم يخجل سيمور أو ساسته الاستعماريون من استباحة حرمة الشعوب على إشراقة الصباح !

فهل بعد كل هذه المسالمات دليل على أن الرجل كان يريد تجنب هذا التدخل كما كان لا يريد الحرب التى لم تكن متعادلة القوى . . والتى تكاثر فيها خصومه وأعداؤه . . والتى تألب فيها كل مارق ومستضعف على كل حر شريف !

ولماذا نحمل عرابيا وحده هذه المسئولية . . . مع أن الخديو نفسه وجميع الوزراء اتفقوا على هذا الرأى . . واشتركوا فى توقيع البيان !

والغريب بعد هذا أن يأتى بعد ذلك من يقول : إنه ما كان لعرابى أن يدخل الحرب .. وكان عليه أن يأخذ الموقف بالهدوء والحكمة ؟

. . فأى منطق هذا ؟

أليس قبول الذل هو الاحتلال بعينه وهل الحكمة فى أن نرى الذل فنقبله ، ونرضاه ؟ وهل أضحى الاستقلال استضافة الأساطيل ونزع السلاح ؟

ما أغنانا عن تسخيف حكمة هؤلاء من قول النائب الانجليزى ريتشارد فى مجلس العموم مستنكرا موقف حكومته :

« أرى رجلا يحوم حول دارى وعلامات العدوان بادية على وجهه .. وحين أعمد إلى إغلاق نوافذى وأبوابى . . يثور غضبا ويزعم أننى أهينه وأهدده ! »

حقا مما يؤسف له . أن هناك من الأعداء من هم أرحم بهذا البلد من بعض أبنائه !

ويا ليت حكمة هؤلاء وقفت عند هذا الحد بل إنها تحمل (عرابى) عدم رأب الصدع بينه وبين الخديو .. وعدم العمل على تلافى هذا الخلاف. ولكن ماذنب عرابى فى هذا كله ؟

وماذا يكون التصرف مع حاكم ينزل فى ضيافة الأسطول الذى انتهك حرمة وطنه .. ؟

وماذا يكون التصرف مع حاكم يستعدى الغاصب على وطنه .. ويعطيه الصك فى تأديب أبنائه ؟

بل ماذا يكون التصرف مع حاكم يستنكر وقفة جيش مصر ضد الجيش الانجليزى فيدفع رئيس وزرائه (راغب باشا) ليستكتبه سيمور خطابا غاية فى المذلة والعار جاء فيه كل مايندى الجبين ؟

« لى الشرف الرفيع أن أعلن لحضرتكم أن (عرابى) يشتغل الآن بإعداد وسائل الدفاع ، وذلك مخالفة لأوامر جناب الخديو .

فكونوا إذن على علم بأن الخديو عزم على عزله .

فهو لذلك المسئول عما يحدث ، فأرجوكم أن تبلغوا حكومة جلالة الملكة هذه الرسالة » !

إذن فلم يكن هناك من تجن حين يطلب عرابى من الخديو ووزرائه أن يتركوا أماكنهم فى أيدى الأعداء ليكونوا فى كفر الدوار للمشاورة فى الموقف ولصد الغزاة !

ولم يخطىء عرابى حين عمل المراطنون ممثلين فى أعيان البلاد وعلمائها وقادتها فى تعطيل سلطة الخديو .

ولم يرتكب عرابى إثما حين أجج نار الثورة ضد الخديو ، وحين اتهمه بالمروق والخيانة عند ما بارك الحملة الإنجليزية بمنشوره الذى جاء فيه بالنص :

« ليكن معلوما عند السلطات الملكية والعسكرية أن أميرال الأسطول الإنجليزى وقائد الجيوش البريطانية العام إنما أتيا إلى مصر لإعادة الأمن والنظام إليها .. ومن ثم سمحنا لهما باحتلال جميع الأمكنة التى يريان فى احتلالها ما يساعد على قمع العصيان ، ومن خالف أمرنا هذا ينزل به أشد العقاب » .

.. حقاً إننى لم أجد ما أرد به على هؤلاء الذين يتمسكون بأطراف الحكمة عند الحكم على عرابى من قول نابليون :

« لكى نسوس المصريين يجب أن يكون هناك وسطاء بيننا وبينهم نقيمهم رؤساء عليهم . وإلا أقاموا رؤساءهم فيما بينهم » .

ولقد أخذ الإنجليز بهذه النصيحة فاتخذوا من الخديو وسيطاً لتنفيذ سياستهم ، ومن هنا عادى الحركة الدستورية فى البلاد ، والنهضة الفكرية فيها وجارى رغبات الأجانب حتى اتخذت منه الدولتان تكأة لمحاربة العرابيين .

فمذكرة ٨ من يناير ، وحضور الأساطيل ، وقصة الاحتلال نفسها كانت كلها تعلل كل مرة بدعوى المحافظة على حقوق الخديو وحماية

العرش . ! ولقد زالت والحمد لله هذه الحجة المصطنعة ، ووقى الله البلاد تدخل الاستعمار تحت هذا الستار ، ولم تعد البلاد إلا معسكراً واحداً عند مجابهة الغاصب الطامع ، ولعل فى حرب السويس إبان العدوان الثلاثى أبلغ دليل على ما نقول . .

وإلى هنا نقف بجانب عرابى من خصومه الذين أرادوا أن ينالوا من مواقفه كى يسدلوا الستار على موقف المعسكر الآخر ، معسكر الخديو ومن سار فى ركبه وركب الاستعمار .

ولكن المؤرخ الصادق عليه أيضاً أن يبرز نقط الضعف فى هذه الثورة ، حتى نخرج بالدرس المستفاد — فمما لاشك فيه أن هذه الثورة كان ينقصها ثبات القادة وصلابة الزعماء . .

فالقائد كما نعلم روح الجيش ، والزعيم عنوان الشعب ، والزعامة تطبع الأمة بطابعها ، والقيادة تشرب الجنود بروحها ، ومواقف البطولة تثبت فى الأمة روح التضحية ، ومواقف التسليم تقضى على روح المقاومة ، ولا شك أن ضعف المقاومة التى صادفتها الحملة الإنجليزية فى الحرب العرابية يرجع بعضه إلى ضعف زعماء الثورة فى أوقات الشدة إلى جانب عوامل الخيانة والغدر التى ساندت جيوش الاحتلال ، فقد استسلم معظمهم مع أن سبيل الكفاح كانت مفتوحة أمامهم . فاللواء محمود فهمى رئيس أركان حرب الجيش استسلم للعدو بمجرد أنه أشيع صدور قرار العصيان ، أو توقع صدوره ، وعرابى زعيم الثورة تقدم إلى حيث يسلم نفسه لعدوه . .

إن حروب الثورات لابد أن تبرز فيها التضحية حتى ولو كان مآلها إلى الهزيمة . . فالهزيمة مع الشرف صفحة فخار ، فى كفاح الأمة فى سبيل حريتها ، والبسالة والتضحية هما الإطار الذى يزين هذا السجل الخالد . ولو أن (عرابى) قاتل حتى استشهد فى التل الكبير لكان لهذه المعركة شأن آخر غير هذا الذى صارت إليه .

أما الخطأ الذى وقع فيه عرابى ، والذى كان سبباً كبيراً فى الهزيمة فهو عدم موافقته على ردم القناة ، فلو ردمت القناة ما استطاعت الحملة الانجليزية أن تستولى على الاسماعيلية بالسرعة التى تمت بها ، لتتخذ منها قاعدة للزحف ، وما أمكن القوات القادمة من الهند أن تتصل بالقوات المتجمعة فى الاسكندرية ، وما تمكن الانجليز من اختراق الجبهة الشرقية بمثل هذه السهولة . . بل كانت ستضطر إلى عبور الصحراء حيث لا زاد ولا كلأ ولا ماء ، أو العبور خلال الدلتا حيث الترع والجسور والعقبات . . وكان موعد زحف الحملة فى شهرى أغسطس وسبتمبر وهما فى موسم الفيضان . وكان إحجام عرابى عن ردم القناة العامل الأكبر فى الهزيمة . .

حقيقة إن هذا الاحجام جاء لا عن جهل بل عن خطأ فى تقدير الموقف فنشأ عن إيمان عرابى بالشرف السياسى والرأى العام العالمى !

ولكن كانت أمام عرابى قبل الزحف على القناة الشواهد الثابتة على أن هذا الرأى العالمى يزيد القوى قوة ويسلب الضعيف ما يملك . . وأن خصومه الانجليز وضعوا سياسة الأمر الواقع نصب أعينهم ، من

ابتداء المؤامرة حتى نهايتها . . فلم يأبهوا بتلك الكلمة البراقة التى تسمى « الشرف السياسى » وانتهكوا حرية مصر باحضار الأساطيل ثم بضرب الاسكندرية ثم باقتحام القناة . . ودلوا على أن الشرف السياسى ليس إلا سرابا خادعا وتمويها وبهتانا . .

فماذا فعل الرأى العالمى عندما ضربت الاسكندرية بقنابل الأسطول فى رائعة النهار ، ومؤتمر الدول منعقد بالآستانة ؟

إنه لم يفعل شيئاً !

ولم يفعل الرأى العام شيئاً عندما اقتحم الأسطول القناة !

كما يجب علينا ألا نغفل -- بجانب هذه الحقائق العامة — الحقائق العسكرية التى أخذت على عرابى . .

فإنه ظل جامداً فى التل الكبير ، ولم يشترك بقواته لمقاومة القوة التى كانت تحارب فى القصاصين ، والتى استطاعت أن تشعر بصلابة المقاومة المصرية أمام الجيوش الزاحفة

كما لم يكن للحركة العرابية قلم مخابرات يستطلع أخبار الدول وأخبار العدو بل كان يعتمد على أفراد لا أمانة لهم ، وعلى نفر من الأعراب الذين باعوا الوطن بدراهم معدودات .

أضف إلى هذا أن معظم القوات كانت غير مدربة على أساليب القتال تجهل روح الضبط والربط . . وكان الرديف والمتطوعون لا يعرفون استخدام الأسلحة الاستخدام الصحيح،ولو كان هناك تدريب لقوات الاحتياط

أو كان ثمة حرس وطنى منظم ، يدمر طرق مواصلات العدو ، ويزعج تجمعاته ويقطع الترع والجسور لاستفاد الجيش استفادة كبيرة ..
وما سرحت نفسها قوات كفر الدوار دون أن تصدر لها الأوامر بالانفضاض عند انتقال القتال إلى ميدان التل الكبير .

ولا نستطيع أن نحمل (عرابى) وحده كل ذلك لأن حكام هذا البلد وعلى رأسهم الجالس على العرش كانوا ضالعين فى الخيانة مع جيوش الاحتلال كما أنه لم تدع الفرصة لعرابى لأن ينظم جيشه أو يدربه على أساليب القتال إذ أن المؤامرة خطت سريعا ، ونفذت بسرعة مذهلة كى تقطع الطريق على هذا البلد حتى لا يتقدم . . وعلى هذا الجيش حتى لا يقوى ..

ومن هنا رأينا أن نعرض فى هذه الحرب للنواحى والأسباب العامة أكثر مما بحثنا وخصنا فى الأسباب العسكرية — ذلك لأن الحركة العرابية كانت ثورة أكثر منها حربا

ثورة حمل لواءها هذا الجندى الفلاح . . الذى تنحنى له الهامات احتراما لجهاده . . ووطنيته وإخلاصه . .

فلا أحد ينكر قيمة هذه الصرخة التى أطلقها فى وجه الاستبداد :

« لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا ولا عقارا . . فوالله الذى لا إله إلا هو : لن نكون عبيدا بعد اليوم » .

بيان المراجع

المراجع الأجنبية :

1— Modern Egypt Cromer.

2— Secret History of the British Ocupation of Egypt: Blunt

3— How We Defended Arabi

4— The Trancit of Egypt P. Elgood

5— The Ruin of Egypt.

6— Blue Book Egypt.

المراجع المعربة :

١ — تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطانى وبعده

تأليف المسيو تيدور رودشتين وتعريب الأستاذ على أحمد شكرى .

٢ — المسألة المصرية

المسيو فرنسيه — تعريب الأستاذ عبد القادر حمزة .

المراجع العربية :

١ - مذكرات عرابى — عدد دار الهلال .

٢ تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده — للسيد محمد رشيد رضا

٣ يوم ١١ من يوليو سنة ١٨٨٢ للآن — عمر طوسون

٤ أحمد عرابى — للأستاذ عبدالرحمن الرافعى

٥ أحمد عرابى الزعيم المفترى عليه — للأستاذ محمود الخفيف .

٦ – مطالعات مختلفة .

هيئة قنــاة السويس

حركة الناقلات :

سجلت الناقلات العابرة خلال أغسطس الحالى (١٩٦٢) زيادة عددية قدرها ٦٦ ناقلة أى بنسبة ٨,٦٪ مقارنة بتلك العابرة فى أغسطس الماضى اذ بلغ عدد ما عبر منها خلال شهر أغسطس سنة ١٩٦٢ (٨٣٣) ناقلة مقابل ٧٦٧ ناقلة فى أغسطس من العام المـاضى .

وطبقا لاتجاهى العبور فقد زاد عـدد الناقلات العابرة من الشمال بمقدار ٣٦ ناقلة (٤١١ ناقلة مقابل ٣٧٥ ناقلة) ويرجع هذا الى الناقلات الفـارغة التى زادت عدديا بمقـدار ٣٧ ناقلة (٣٨٢ مقابل ٣٤٥) بينما نقصت الناقلات المحملة بمقـدار ناقلة واحدة (٢٩ مقابل ٣٠) .

اما الناقلات العابرة من الجنوب فقد زادت بمقدار ٣٠ ناقلة . ٤٢٢ مقابل ٣٩٢ ناقلة) وقد حققت تلك الزيادة الناقلات المحملة (٤١٢ مقابل ٣٨٢) بينما لم يحدث اى تغيير فى الناقلات الفارغة (١٠ ناقلات فى كلا الشهرين) .

وزادت الحمولة الصافية للناقلات العابرة خلال الشهر الحالى مقارنة بما عبر خلال أغسطس من العام الماضى ١٠٦٣٠٠٠ طن أى بنسبة ٩,٢٪ (١٢٦٧٣٠٠٠ طن مقابل ١١٦١٠٠٠٠ طن) وتمثل الحمولة الصافية للناقلات نسبة قدرها ٧٤٪ من مجموع الحمولة الصافية للسفن العابرة خلال أغسطس ١٩٦٢ وكانت هذه النسبة ٧٣ ٪ فى اغسطس ١٩٦١

وبلغ متوسط كميات المواد البترولية المنقولة على كل ناقلة محملة ٢٧١٢٧ طنا فى أغسطس مقابل ٢٦٤٤٠ طنا فى اغســطس ١٩٦١ .

كما بلغ متوسط الحمولة الصافية ١٥٢١٤ طنا فى أغسطس ١٩٦٢ مقابل ١٥١٢٧ طنا فى اغسطس .

فهرس



مطابع الدار القومية

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون { ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤ }

العدد ١٩٨ ١٠ قروش
